٢٥٠

HARLEQUIN

روايات احلام

عاشت مرتين

أيما دارسي

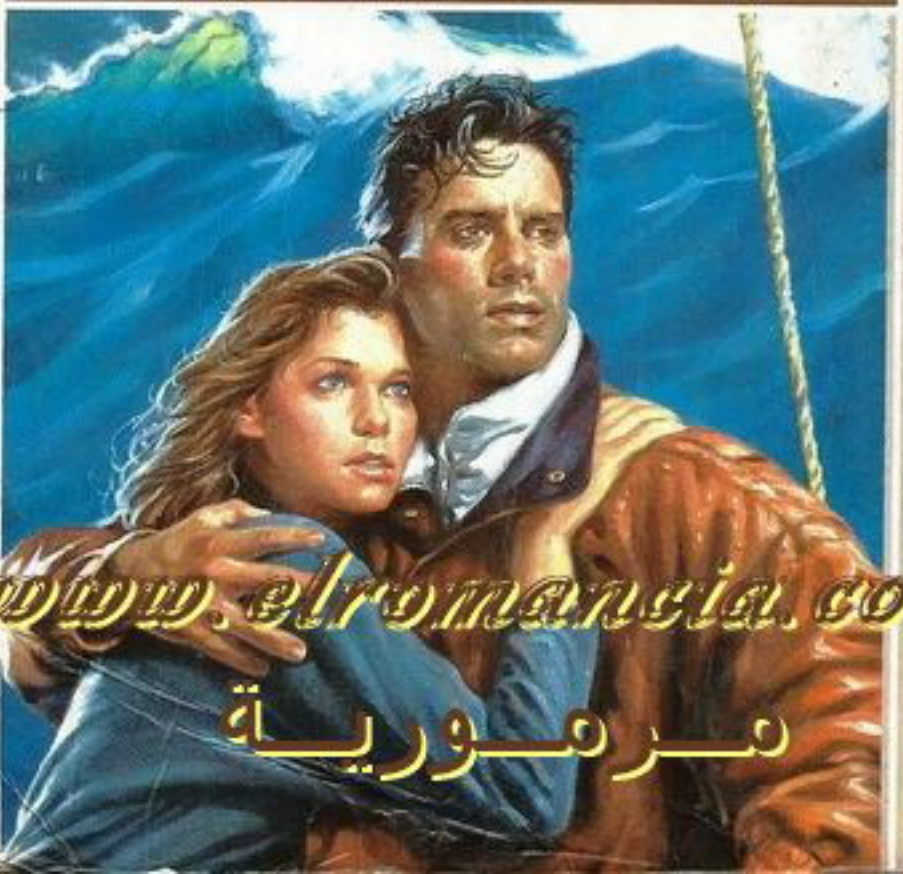

www.elromancia.com
رومانسية

عاشت مرتين

أخذ جويل فيبر يراقب المرأة المجهولة تتقدم نحوه بكامل جمالها، وأناقتها... وإغواءها!

- كنت أنتظرك!

وكان هذا صحيحاً إلى حدٍ ما... ففيها أمر غامض... أمر مختلف... وكأن إحساساً داخلياً ينبهه أن ماضيه الذي هرب منه طوال عشرون سنة يكمن خلف هذه الواجهة الجذابة... ثم التقى بعينيها... هاتان العينان:

- من أرسلك؟

- لا أحد، إنها فكرتي.

- أنت تعبثين مع قوى لا يمكن مقاومتها، فإذا خرجت تلك القوى عن السيطرة، فلن تلومي سوى نفسك.

وكان هذا صحيحاً إلى درجة الخطورة... فمن يلوم رجلاً مثل جويل فيبر على تصرفاته عندما يواجه مأساة ماضٍ دُفن في أعماق البحار منذ عشرين سنة؟ ماضٍ أمضى حياته هارباً منه يحاول نسيانه؟ ومن يستطيع التنبؤ بردة فعله على هذا التحدي: أقصى العنف... أو أقصى الحب؟

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١,٥ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال
البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٦ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-083-4

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Ride the Storm

First published in Great Britain 1992

Harlequin Mills & Boon Limited

© Emma Darcy 1992

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 083 - 4

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - ستر زعرور -

ص.ب: ٨٢٥٤/١١ هاتف/فاكس: ٤٥٠٩٥٠-١-٩٦١- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص

أسرة أحلام

www.elromancia.com

أيمّا دارسي

كانت أيمّا دارسي ممثلة قبل أن تصبح زوجة وأمّاً. ولاحقاً أخذت تهتم بالرسم الزيتي، ولكنها اعترفت بأنها لم تفلح فيه... بعد ذلك جربت الهندسة المعمارية فوضعت تصميماً لمنزلها الواقع في «نيوساوث ويلز». ومؤخراً أصبحت كاتبة روايات رومانسية، وبحسب ما اعترفت: «أن كتابة الروايات العاطفية من أصعب الأعمال وأشدّها بعثاً للتحدي».

١ ـ مهما كان الثمن

كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما وجّه «غاريت» سفينة الصيد القديمة نحو حوض السفن في جزيرة «ليجر». راحت تيفاني تفكر في أنهما وصلا حسب الخطة الموضوعة تماماً، محاولةً تهدئة التوتر المفاجىء الذي تملكها وهي تتفحص بلهفة مجموعة اليخوت المتألقة الراسية في ذلك المنتجع البحري الخاص.

تعمّدت تيفاني اختيار تلك الساعة المتأخرة إذ لا يحتمل أن يكون هناك أناس كثيرون يتمشون في حوض السفن في ذلك الوقت، ولكن الوقت لم يكن متأخراً للوصول إلى حفلة، خاصة تلك التي يقيمها «جويل فيبر» لأصدقائه.

لم يكن من الصعب التعرف على يخته، فهو يعجّ بمصوّري الصحف والمجلات، الذين أتوا لتصوير أفخم ما صُمم وبني من اليخوت من أجل رجل أعمال أسترالي.

قالت تيفاني وهي تشير إلى اليخت ظافرة: «ذاك هو».

ـ آه، إنه حقاً «ليبرتي».

بدت نبرة غاريت ساخرة لاذعة وهو يذكر اسم اليخت.

ـ إنه لا يشعر بالبحر على ظهر ذلك اليخت.

أمضى صياد السمك العجوز حياته في البحر، لذا بدا من الواضح أنه لا يكن الكثير من الاحترام لأولئك الذين يعبثون فيه. ومع هذا، توجّه

www.elromancia.com

بالسفينة القديمة نحو «البرتي» لكي ينظر عن كثب إلى اليخت الرائع، قبل أن ينزل «تيفاني» في أكثر الأمكنة تورياً عن الأنظار.

كانت الأنغام الموسيقية تنساب فوق المياه، فالحفلة على ظهر المركب في أوجها. كانت تعلم أن تطفّلها على الحفلة مغامرة كبيرة، لكنها إذا استطاعت أن تصل إلى «جويل فيبر»، فهي شبه واثقة من أنه سيصغي إليها، ولو فعل ذلك، لحققت جزءاً كبيراً من مخططها.

شهور من الجهود المحبطة دفعتها أخيراً إلى التسلل بهذا الشكل. ولم تكن تيفاني معتادة على الهزيمة. فبعد ثمانية وعشرين عاماً أمضتها في هذا العالم، لديها من الخبرة ما يجعلها واثقة من قدرتها على إنجاز كل المهام تقريباً. ومع ذلك، أخفق كل ما لديها من براعة ومهارة في ترتيب لقاء مع «جويل فيبر» من خلال الاتصالات المعتادة. لكن تيفاني لم تكن لتعترف بالهزيمة، لا سيما وأن هذا يعني هزيمة من تحبهم.

- هناك المزيد من حراس الأمن.

زعق غاريت بذلك وعيناه تستقران على رصيف الميناء حيث يقف رجلان عند مدخل معبر مؤقت بين اليخت والشاطىء

- إنها مهمة لا فائدة منها، والأفضل أن نعود إلى البيت.

- ردت تيفاني محتجّةً رغم أن قلبها غاص لهذه العقبة غير المتوقعة: «لا!».

- لن تتمكني من تجاوزهما. لقد هزمك «جويل فيبر» مرة أخرى.

فقالت معاندة بإصرار:

- لم يهزمني بعد، وسأتجاوزهما.

ستتمكن من أن تتجاوزهما، أو تحدث ما يلهيهما ويحوّل نظرهما عنها فتدخل الحفلة. سوف تتبع أي طريقة تخطر لها مهما كلفتها، فجويل فيبر أفضل فرصة لديهم، بل لعله الفرصة الوحيدة للحصول على ما يحتاجونه من عون وسند. فقال العجوز متشائماً:

- لن تنجح الخطة على أيّ حال.

- لماذا تقول هذا؟

ونظرت إليه متفحصة.

سكت غاريت على الفور كما يفعل كبار السن في خليج «هاڤن بي» عند ذكر اسم جويل فيبر. إنه أشهر أبناء قرية صيد السمك القديمة تلك، على الإطلاق. ومع ذلك لم يشأ أحد أن يتحدث عنه. كما أن الجميع متشائم ويشك في أن تتمكن تيفاني من عقد اتفاقية معه. في البداية، خُيّل إلى تيفاني أنهم يغارون من نجاحه، أو لعلهم انزعجوا لأنه غادر قرية «هاڤن بي» واتخذ سكناً أفضل. أو ربما ظنوا رحيله هرباً من كل شيء بعد تلك «العاصفة» التي ما زالت ذكرى مريرة للجميع، وإن بعد عشرين عاماً. فكم من الأرواح أُزهقت، بمن فيهم جد جويل فيبر. ولكن بعد تلك المأساة التي لم تترك له سبباً للبقاء، رأت تيفاني أنّ من الطبيعي جداً أن يهجر ابن السادسة عشر بلدته، سعياً وراء حياة من نوع آخر، ولا يحق لأحد أن يلومه على رحيله.

ومع ذلك، كان يتملك تيفاني أحياناً شعور مزعج بأن هنالك سبب آخر... سبب لم يتحدث عنه أحد. غير أنها كانت دوماً تلجم هذا الشعور وتعتبره مجرد تخيلات. وكان «غاريت ماكوغ» بمثابة قائد في «هاڤن بي» وقد ساند تيفاني في فكرتها حول تجديد القرية بشكل جذري، موافقاً على أن جويل فيبر هو أفضل من يمكن أن يقصده أبناء القرية لطلب العون. حتى أنه ساعدها على تحقيق مشروع هذه الليلة.

لماذا يشك إذن، في فرص نجاحها الآن؟ كما أنّ النبرة الحادة في صوته، كانت تدل على كراهيته لجويل فيبر، مما جعلها تتساءل عما إذا كانت مخدوعة بطريقة ما. ضاق صدرها لصمت غاريت، فسألته بحدة:

- ما هو ذلك الأمر الذي لا أعرفه، يا غاريت؟ ما الذي لم تخبرني عنه؟ لماذا لن تنجح خطتنا؟

لكن تعابير وجهه لم تكشف لها شيئاً. أما لحيته التي يتخلّلها الشيب فجعله يبدو كإحدى الشخصيات القوية والنزيهة في الكتب. وراحت يداه

تلامسان عجلة القيادة بتردد. وأخيراً قال:

- لم أتوقع وجود المزيد من الحراس، ظننت أننا بهذه الطريقة سنتجاوز أفضل الإجراءات الأمنية، كما خططنا بالضبط. أما الآن فالخطة لن تنجح. لا أريد أن يقبضوا عليك بتهمة التسلل يا تيفاني، فذلك سيؤدي إلى تفاقم القضية.

وأخذت تيفاني تفكر في أن الخطة، وإن فشلت، لن توصلها إلى السجن. فهذه الخدعة بسيطة وليست احتيالاً. وأقصى ما يمكن أن يحصل هو أن يعتبروها مزعجة ويحذروها... وقالت بإصرار:

- ما زال الأمر يستحق المحاولة. لن يحدث شيء خطير.

أخذت أصابع غاريت تنفتح وتنقبض بينما عيناه الفولاذيتان تخترقان عينيها وكأنهما تلجان إلى أعماقها..

- قلبك طيب يا تيفاني جايمس... قلبك معطاء ككل أفراد أسرتك. لا أريد أن يصيبك سوء بأي شكل من الأشكال.

- أنا لست طفلة يا غاريت، ويمكنني أن أعتني بنفسي. أما بالنسبة إلى أسرتي، فأنت تعلم خيبة الأمل التي ستصيب كارول والآن إذا عدت إلى البيت فارغة اليدين مرة أخرى.

كانت تيفاني تعلم أن غاريت مولع بآلان، ولا تظن أنّ شخصاً ما في «هاڤن بي» لا يحب ابن أختها، أو على الأقل يعجب به بعد أن ذلّل الصعوبات التي واجهته في الحياة. لذا فهو يستحق المستقبل الذي يريده. وكانت تيفاني على استعداد للقيام بكل ما في وسعها لتحقيقه له. كما أرادت أن تمحو نظرة القلق والتوتر من عيني كارول لترى فيهما بريق نور وحياة، فقد ضحّت أختها كثيراً من أجل ابنها، وقد حان الوقت لكي يخفف شخص ما عنها عبء المستقبل.

لقد علّمهما أبواهما بالتبني أن سبب وجود الأسرة... هو المشاركة في حمل الأعباء... أن يساعد كل فرد منهم الآخر، ويعينه على مواجهة الكوارث يداً بيد. حاول كل أخوة «تيفاني» وأخواتها سدّ احتياجات

بعضهم البعض كلما تمكنوا من ذلك. وهذه المرة كانت تيفاني أفضل من يستطيع المساعدة، فإذا حصلت على مساندة جويل فيبر لمشروعها، انحلت مشكلة المستقبل حتماً.

وأخيراً، وافقها غاريت بحزم وعبوس: «فليكن إذن. وأرجو أن تصلي إليه».

تنهدت تيفاني بارتياح لعودته إلى المساعدة. كان العجوز قلقاً لأجلها، وهذا كل ما في الأمر.

- شكراً يا غاريت.

قالت هذا بابتسامة راضية، فألقى عليها نظرة غامضة.

- هذا لا يعني أنني أظنك ستنجحين.

- هذا عائدٌ إلي.

أجابته بسرعة وحدّة، ثم عادت تنظر إلى حوض السفن، عازمة على المضيّ في خطتها من دون مزيد من الجدل. قالت وهي تشير بيدها:

- من هناك، عند طرف الرصيف البعيد. سأجد طريقي.

ومن دون كلمة أخرى، وجّه غاريت السفينة نحو أفضل طريق. في حين بدأت تيفاني تستعيد في ذهنها الدور الذي ستقوم به، وراحت تقنع نفسها بأن الأمر يتوقف فقط على الثقة بالنفس.

كانت الملابس الباهظة الثمن التي ترتديها كافية لكي تبدو من صفوة المجتمع. كانت واثقة من أن مظهرها وحده يجعلها تبدو من المدعوين. كل ما تحتاجه هو أن يحالفها الحظ. لم يحدث قط أن فشلت في الخروج من أي مأزق، يتطلب سرعة في البديهة وفي الحركة. وهكذا، لم يكن لديها ما تقلق بشأنه... لا شيء على الإطلاق... وهي ستصل إلى جويل فيبر بأي طريقة كانت، وتجعله يصغي إليها.

* * *

٢ ـ كنت أنتظرك

وقف جويل فيبر على سطح يخته، وقد أدار ظهره لضيوفه المحتفلين وصخبهم. كان متعباً من الأحاديث المتوقعة منه، ويريد مكاناً هادئاً يلتقط فيه أنفاسه بعد الأيام الماضية المحمومة.

كانت ليلة رائعة بنسيمها المعطر، الرقيق، لا سيما بعد أن بلغت مخططاته الذروة في الكمال. وها هي الآن جزيرة «ليجر»، أحدث المناطق السكنية في استراليا، تُفتتح باحتفال متألق يليق بمكانتها، لذا لم يبق له ما يفعله سوى تأمل جمال الليل، وحساب أرباحه.

كان جويل يعلم أنه يجدر به أن يتذوق حلاوة النجاح وأن يظهر ابتهاجه البالغ، للمتشككين الذين حذروه من من القيام بهذه الخطوة الكبيرة، لأنها ستكون عبئاً عليه، وسينتهي به الأمر إلى الإفلاس. ولكن كل ما شعر به نحو أولئك الرجال هو الشفقة وشيء من الإزدراء، فقد كان النجاح سهلاً للغاية. وارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة وهو يعترف في قرارة نفسه أن ما شعر به هو الفراغ، الشعور نفسه الذي لطالما تملّكه في هذه السنوات. حتى أنه ازداد الآن بعد أن حقق طموحاته كلها، ولم يعد لديه ما يفعله.

لقد أمضى السنتين الأخيرتين منكباً على هذا المشروع، محيلاً ما كان أرضاً قاحلة ومستنقعات إلى منطقة مترفة بالغة الجمال، ستجذب من دون شك بالغي الثراء المنتمين إلى الطبقة الراقية. ملاعب غولف رائعة وأحواض سفن ومنازل مطلّة على البحر مع أرصفتها الخاصة، وفنادق

فخمة، ومتاجر تتباهى بأحسن البضائع. وبفضل الطريق الذي يربط الجزيرة بالأرض الرئيسية قصرت المسافات بين «سرفرس بارادايس» و«بريزبن»... كما أن الأموال بدأت تتدفق كأمواج البحر اللامتناهية، لذا يفترض به أن يطير من الفرح، لا أن يتملكه هذا الشعور بالفراغ. ولكن لعل هذه الأحاسيس تجتاحه لأن حياته تفتقر المغامرات الحقيقية.

فحسن إدارته وأعماله كفيلة بأن تضمن النجاح لأي مغامرة يقدم عليها. ما يحتاج إليه هو عاصفة في حياته. فبعد كل تلك السنين، ما زال عنف عناصر الطبيعة يحدث في كيانه قلقاً وتوتراً جسدياً... وتململاً وانزعاجاً لا يُحتمل. لم ولن ينسى قط تلك الذكريات الأليمة التي تسيطر على مشاعره كلها، غير أنه كان مضطراً لذلك أثناء العمل، لكي يبلغ أهدافه المنشودة ويمضي قدماً.

لم يكن أمامه مجال لتغيير الماضي ولا لتغيير ما حدث، ولو تسنّت له في الماضي فرصة الاختيار، لوهب حياته. غير أن الخيار الوحيد الذي بقي له هو المضيّ قدماً... والنسيان.

كان جويل يقوم بمغامرات عدة، تثير اهتمامه على الأقل لفترة وإن لم تنجح، وقد اشترى المحطة التلفزيونية تلك التي بدت له فكرة ذكية حينذاك، لكنه خسر فيها مبالغ كثيرة، وكان من الأفضل أن يتركها ويستثمر أمواله في مشروع أكثر نفعاً و... فائدة شخصية.

وإذ تملكه الضيق لأنه ترك أفكاره تعود إلى العمل، استدار وعاد يتكىء إلى الحاجز الحديدي، يتأمل المدعوات الجميلات اللاتي دعاهن إلى الحفلة على اليخت بمناسبة افتتاح الفندق.

كانت الشخصيات المميزة المدعوة تدل على مركزه الرفيع. ولكن، حتى ذلك لم يعد يعني له الكثير. لقد اجتمع بشخصيات من الأسرة المالكة، ودُعي إلى المؤسسات المدنية والعسكرية، وكان هذا الأمر يعني له الكثير في الماضي، وما زال حتى الآن... ولكن ليس بالقوة نفسها.

شعر الليلة أنه بعيد عن هذا كلّه، وكأنه تجاوز كل ما مرّ به. هز

رأسه وحاول تركيز ذهنه على أمور أكثر واقعية. بدا من السخافة أن يسعى إلى الاستمتاع بحفلته، فما عليه إلاّ أن يلتمس الراحة والاسترخاء وترك الليل يجلب له متعته الخاصة.

إمرأة... هذا ما يحتاج إليه، إمرأة تلهيه وتسلّيه وتدخل المتعة إلى نفسه. لم يعبأ باتخاذ بديلة «لنانيت» منذ غادرت في رحلة تسوّق إلى أوروبا. فقد كان مشغولاً جداً بالمشروع وغير مبالٍ، ولكن ربما الليلة...

أطال النظر إلى «جيرمين»، عارضة الأزياء المتألقة... وإلى شعرها الرائع، الناعم، الحريري الجذاب... فألقت به إلى الخلف متعمّدة إغواءه عندما رأته ينظر إليها متفحصاً، وابتسم بنحية مقتضبة. ولكن الحفلة في أوجها ولم يكن مستعداً بعد لتشجيع «جيرمين».

وبعدم مبالاة غير جارحة، حوّل عينيه بعيداً، ساخراً، متغطرساً، لأنه يدرك تماماً أن ما من امرأة هنا لا يستطيع الوصول إليها. لكن لم يحدث أن كان لامرأة من الأهمية لديه بحيث يحتمل كل ذلك الإزعاج من أجلها، رغم سهولة قراءة الإذعان والقبول في أعينهن. كان هذا، يسرّه ويثيره، في ما مضى، إذ يرى فيه شاهداً على مدى أهميته. وبالنسبة إلى هذا الرجل الذي اعتبر من حثالة المجتمع في حداثته كان أيّ قدر من الاحترام يعني له الكثير.

اليوم يرى الأمور بواقعية أكثر من السابق، ولم يكن لديه اعتراض على أن ترغب فيه امرأة، فالثراء، والمركز، والنفوذ... مزايا تقدّرها النساء فيه. وكانت الرغبة دليلاً على نجاحه، لكنها تختلف عن الزواج. لقد عاش جويل وحيداً مدة طويلة إلى حد جعله يرى في الزواج سجناً كريهاً، فهو يتمتع الآن بتلك الحرية التي لطالما حلم بها في صغره، وعمل جاهداً للحصول عليها، من دون أن يدين لأحد بشيء، وهو يريد الاحتفاظ بهذه الحرية.

لكنه، مع ذلك، لم يكن راهباً، ولهذا لم يجد سبباً يمنعه من رفض ما

يُقدم له على طبق من فضة. وهذه السهولة جعلت الجهد المطلوب منه للحصول على مبتغاه يتناقص من وقت لآخر، وهذا لا يعني أنه كان يتعب في اجتذاب المرأة. لكنه الآن واثق من أن الأمر ما كان ليختلف لو أنه قبيح الشكل وعجوز ذلك أن للثراء قوة وجاذبية. أما بلوغه السادسة والثلاثين من عمره ووصوله إلى ذروة رجولته، فقد عزّز رغبة النساء فيه.

شعر بالأسى لملاحظاته الساخرة هذه، مدركاً أنها كانت تنمو داخله كالمرض، مبتلعة مثله العليا. لكن المشكلة أنه لا يستطيع شيئاً إزاء ذلك، لأن معظم الذين واجههم أنانيين لا يهمهم سوى مصالحهم وغرورهم وهذه المشكلة ستبقى دائماً.

ظنّ أن الأمر سيختلف عندما يكبر ويصبح ناجحاً غنياً، ولكن الأمور تتغير والمشكلة تبقى على حالها. فبإمكانه أن يحيط نفسه بأي عدد من الناس عندما يشاء، ولكن من ذا الذي سيبقى بجانبه إذا ما أفلس غداً؟ عليه أن يكتفي بذاته لكي يرتاح. (إما أن تسبح وإما أن تغرق) هذا ما كان جده يقوله منذ زمن طويل. ولا أحد سيمدّ له يد المساعدة الآن أكثر مما فعل «روبين» العجوز، حينذاك.

تنهد بنفاد صبر من هذه الخواطر الكئيبة، ثم راح يتأمل حوض السفن، فرأى مركباً يقترب من دون أنوار، مما أثار فضوله. تمكّن على ضوء البدر من أن يلحظ الخط المميز لسفينة الصيد، فقد رأى الكثير منها في زمانه. لكنها هنا في غير مكانها، وتساءل عن سبب وجودها.

وفجأة، خففت السفينة سرعتها وتقدمت بهدوء نحو رصيف يبعد عن اليخت «ليبرتي» بضع مئات من الأمتار. توقفت السفينة مؤقتاً، ثم لمع ضوء اخترق الظلام، وبسهولة خبير، دار المحرك، واندفعت مقدمة المركب نحو الخليج وسرعان ما اختفت. قطب جويل حاجبيه، بدا له هذا الحدث غير عادي ومنذراً بشيء ما. أخذ يتفحص الرصيف فلم ير شيئاً، ثم رفع بصره إلى مقدمة الشاطىء وهناك رآها... امرأة ترتدي ملابس بيضاء... تتسلل من الظلام بشكل غير ملحوظ نسبياً وتمرّ قرب

اليخوت.

ولم يشك جويل في أنها قفزت من سفينة الصيد، فقد كانت هذه الطريقة الوحيدة لتجنب نقطة التفتيش على الطريق المرتفع التي تحمي ضيوف جزيرة «ليجر» من المتطفلين غير المرغوب فيهم. وكان الشعور بالأمان هو أحد عوامل جذب الأثرياء، والتفتيش هذه الليلة متشدد. وحدهم حاملو تذاكر الحفلة وضيوف الفندق، وأصحاب البيوت، والمدعوون بصفة خاصة، يُسمح لهم بالعبور.

أخذ يتساءل عن هدف تلك المرأة، وقرر أنها إذا غيرت اتجاهها وتوارت عن الأنظار، فسينبّه حراس الأمن الواقفين عند أسفل المعبر بين اليخت والرصيف. إذ لم يكن السطو يناسب مشروع «جزيرة ليجر». لكن هذه المرأة لم تكن حتى الآن سوى متعدية على أرض الغير، وهو يستمتع بمراقبتها.

عندما خطت على رصيفه، ازداد اهتمام جويل بها. لم تكن مثيرة إنما بالغة الأناقة والتألق وتنضح عزماً وتصميماً وهي تسير بساقيها الطويلتين الرشيقتين نحو حراس الأمن. كان بنطلونها الضيق يبرز مفاتن جسدها الأنثوية الرشيقة، ونحافة خصرها. كانت تعلّق سترتها على كتف واحدة وتحمل في اليد الأخرى حقيبة مسائية لامعة. أمّا شعرها فبلون العسل الفاتح، طويل أملس، يلتف عند أطرافه ويحضن كتفيها. ووجهها جذاب بعينيها الواسعتين وأهدابهما الكثيفة السوداء، وأنفها المستقيم وفمها الممتلىء، وذقنها المصممة التي تعلو عنقها الطويل الجميل، الذي تتمنى الجواهر أن تطوقه، مع أنها لم تكن تلبس أياً منها، أما الزينة الوحيدة على وجهها فحمرة شفاه خفيفة مرجانية اللون. بدت غريبة كلياً وأدرك جويل أنه لم يرها يوماً في حياته، كما أنه لم يَدْعُ غرباء إلى حفلته. ومع ذلك اقتربت من رجل الأمن بثقة وعدم مبالاة، وأخذ جويل يرقب بفضول ليرى كيف ستعالج الأمر.

* * *

راح قلب تيفاني يخفق بعنف فهي لا تعلم ما إذا كان لدى رجلي الأمن قائمة بأسماء المدعوين أو ما هي الإجراءات التي يجب اتخاذها لكي يدعاها تمرّ، ولكن من الواضح أنهما لا يقفان هناك عبثاً. لذا عليها أن تؤدي دورها بمهارة، عليها أن تبدو وكأن لديها كل الحق في أن تكون هنا، ثم تتصرف على هذا الأساس.

أخذ الرجلان يراقبانها تدنو منهما، ولم يبد على وجهيهما أي أسئلة متشككة. للحظة ظنت تيفاني أن بإمكانها أن تمرّ بينهما مباشرة متوجهة إلى اليخت، لكن ذلك الأمل سرعان ما تبدد عندما وصلت على بعد خطوتين منهما.

ـ مساء الخير سيدتي، بطاقة الدعوة من فضلك.

ـ هذه ليلة رائعة، أليس كذلك؟.

قالت هذا محاولة اكتساب الوقت وهي تنظر بإعجاب إلى البدر المكتمل والسماء المرصعة بالنجوم، فيما أفكارها تدور وتدور بحثاً عن حلّ. ومن أين تبرز لهما بطاقة دعوة لا تملكها؟ أتراهما يصدقان ادعاءها بفقدانها. لا.. هذه مغامرة كبرى، ربما عندئذ سيسألانها عن اسمها. عليها أن تجعلهما يصدقان أن لديها بطاقة دعوة.

منحت الرجل الذي كلمها ابتسامة خلاّبة، ثم فتحت حقيبة يدها، وما إن دسّت يدها فيها حتى أخذت تدير عينيها ساخطة وهي تتذكر:

ـ آه، لقد تركتها في السيارة، كنت أنوي وضعها في الحقيبة، لكنني نسيتها عندما سكبت لنفسي كأس عصير...

واستدارت تنظر خلفها إلى رصيف الميناء، مضيفة:

ـ لقد عاد «بيتون» إلى موقف السيارات، وهذه مشكلة!.

وتأوهت وهي تنظر إلى الحارس بتضرع، ملتمسة منه التساهل، ثم غيّرت لهجتها وكأنها تتوقع منه ذلك، قائلة:

ـ إنها ليست ضرورية، أليس كذلك؟ سيتوجّب عليّ أن أذهب إلى

الفندق مشياً على قدمي لأعثر على «بيتون»، ثم أذهب إلى...

لكن رجل الأمن هز رأسه بأسف:

ـ آسف سيدتي... لا يمكنني أن أدعك....

ـ أعرف هذا.

قاطعته بوجه مشرق، ثم تكلّمت بنبرة متسلطة، آملة أن تبدو كفتاة غنية مدللة قد تذكرت شيئاً لتوّها:

ـ يمكنك أن تحضرها لي! هل لك أن تتكرم وتعفيني من الإزعاج؟ أيمكنك أن تذهب إلى الفندق وتنادي بيتون؟ لا شك أنه ذهب رأساً إلى المطعم، فلا عمل لديه بقية الليل، أخبره أين تركت بطاقة الدعوة وهو سيحضرها لك.

إذا ذهب فسيمضي وقتاً يكفيها لكي تصعد إلى ظهر اليخت وتعثر على جويل فيبر...

ـ لا يمكنني أن أترك مركزي يا سيدتي.

ـ آه، ما هذا الكلام الفارغ!.

وأطلقت ضحكة صغيرة وهي تنظر إلى الحارس الآخر.

ـ ماذا تظناني سأفعل؟ أغتال رئيسكما؟

بادلها الشاب ضحكة هادئة، فاغتنمت الفرصة، معتمدة على روح النكتة: «هيا أيها الشابين... أنتما اثنان، فإذا أدّى أحدكما هذه الخدمة لي، فلن يكون في هذا تخلياً عن عملكما».

ثم، وفي نفحة إلهام، رفعت يدها اليسرى وحركت أصابعها، لتلفت النظر إلى الخاتم اللؤلؤي الرائع الجمال الذي كان «أرماند» قد أعطاها إياه. ثم قالت: «أعطاني السيد فيبر هذا كدعوة خاصة جداً وقد تأخرت الآن. وعندما تعود وتريد أن تتأكد من هويتي ستجدني معه».

وأقرّت تيفاني في سرّها أنه إذا لم ينفع هذا، فلن ينفع أي شيء آخر، ثم سارت تتجاوزهما بغطرسة بالغة، مفترضة أن كل نقاش قد انتهى.

* * *

أخذ جويل ينظر إلى رجلي الأمن وهما يتبادلان النظرات بتردد، ولكن لم يتحرك أي منهما لمنع المرأة. لقد احتالت عليهما وواجهتهما بأسلوب بالغ الأبهة والذكاء، واستمتع هو تماماً بهذا الأداء. صفّق بيديه ببطء مما جعلها تجفل وتنظر إليه، فاشتبكت أعينهما، وابتسم وهو يرى الصدمة على وجهها. كان معجباً بخداعها الشجاع للرجلين ومن الفضول بحيث أراد أن يعرف المزيد عنها. قال لها:

ـ كنت أنتظرك.

وكان هذا صحيحاً إلى حدٍ ما... ففيها أمر غامض... أمر مختلف... ثم، ماذا لو كانت فتاة تسعى وراء النجاح، وتلاحق الحظ؟ هذا أقل ما يمكن استنتاجه نظراً لوجود هؤلاء الرجال الأثرياء كلهم على قائمة المدعوين الليلة. مثل هذه الفتاة الحاذقة تستحق مكافأة على جهودها رغم أنه لن يدعها تخدع ضيوفه.

بدا شيء من الاضطراب على وجهها قبل أن تجاريه في الكلام. لقد قبض عليها بالجرم المشهود، كما يقال. وكلاهما يعي ذلك، لكنه تركها تفلت من العقاب.

ـ آسفة، فقد أعاقاني.

قالت هذا بمرح مضيفة بسرعة:

ـ لا تبارح مكانك، سأصل إليك بعد دقيقة.

قالت هذا بحرارة أدهشته خصوصاً وهو لم يلمس في حديثها أي شعور بالذنب. وأجاب ساخراً:

ـ سأكون في غاية الحزن، إذا لم تصلي.

ضحكت، ولم يعرف تماماً ما إذا كان ذلك لشعورها بالارتياح أم بالابتهاج، ولكن هذا غير مهم، فقد أحب ضحكتها التي بدت له طبيعية غير متكلفة. وفجأة، انتبه جويل إلى أن شعوره بالفراغ قد تلاشى ليحل مكانه شعور لذيذ بالتوقع. وافترض أن تعرّفه إليها أكثر لن يُسفر عن

خيبة أمل. لاحظ أن قدّها جذاب للغاية وهي تسير بمرح على الممر المؤدي إلى اليخت. وضحك بخفة، لقد توقع أن تتودد امرأة إليه... ولكن ليس امرأة بمثل هذه الجرأة والعزيمة. وستكون هذه المواجهة ممتعة حقاً.

* * *

٣ ـ سيدة الليل الغامضة

لم تستطع تيفاني أن تصدق أن الحظ حالفها بهذا الشكل، فهي طبعاً، لم تتوقع أن يكون جويل فيبر واقفاً يراقبها وهي تمثل وتعبث. لماذا فعل ذلك يا ترى؟ هل أعجب بجرأتها ووقاحتها؟ أم أنه يتلذذ بأن يوجه إليها توبيخاً شخصياً قبل أن يطردها؟ لكن ذلك لم يهمها. فقد حصلت على الفرصة التي أرادتها، وهذا هو المهم.

عندما صعدت على متن ليبرتي، نظرت إلى الخلف حيث يقف رجلا الأمن. لم يذهب أيّ منهما إلى الفندق بعد الملاحظة التي وجهها إليها جويل فيبر والتي أوحت أنه يعرفها.

توقف قلب تيفاني عن الخفقان، وهي تفكر في ملاحظته تلك. إذ عدا عن مركزه وثرائه وسلطته وواقع أنه عازب بين الكثير من أصحاب الملايين المتزوجين، لم تكن تعلم أي نوع من الرجال هو. ولكن إذا ما كوّن أيّ فكرة خاطئة عنها هي، فستصححها له على الفور. ومن المؤكد أنها عندما تخبره عن سبب قدومها، سيتضح أساس لقائهما.

كان هذا اللقاء الوشيك يستحوذ على أفكارها لدرجة أنها لم تلحظ النظرات الفضولية التي ألقيت عليها عندما شقت طريقها بين حشود الضيوف متجهة نحو جويل.

كان جويل فيبر يتناول عن صينية النادل كأسي عصير عندما رأته، لا يزال مستنداً إلى «الدرابزين»، ولم يبارح مكانه. تجاوزت تيفاني المجموعة

www.elromancia.com

الأخيرة من المدعوين ولم يعد يفصلها عن سطح السفينة سوى بضع خطوات... وأنبأها حدسها بأمر غير مألوف... وكأن هذا الرجل كان ينتظرها طوال حياتها، في مكان ما... وهو الآن... هنا أمامها مباشرة.

وراحت تعلّل هذا الشعور بهاجس الوصول إليه، فهو في ذهنها منذ أشهر. ولكن... على الرغم من أنها رأت صورة حديثة له، لم تكن مستعدة على الإطلاق لهذا التأثير الغريب الذي تركه فيها. فهي لم تتوقع أن تراه طويل القامة إلى هذا الحد... كما أن قوة عضلاته ظاهرة في عرض كتفيه وصدره. ومع ذلك بدا على وجهه النحول والجوع... فعظام وجهه ناتئة وخداه ضامران وكأنه لا ينال كفايته من الطعام. أما شعره فقاتم جداً يميل إلى السواد، ولكنه قد سُرِح بشكل أنيق. بدا في الصورة مهذباً دمثاً، ولكن كان على تيفاني أن تنظر إلى هاتين العينين اللتين لا يمكن سبر غورهما، لتشعر بالعنف فيه. لم يلطف الثراء والنجاح والعيش المرفّه من طباعه مثقال ذرة. كان صلباً، صلابة رجل كافح طويلاً ثم خرج منتصراً. ومع ذلك، لم تبدُ على وجهه ملامح البهجة... إنما الحذر والصبر.

ـ أنا لا أعض...

قال هذا ببطء لاوياً فمه بابتسامة مغوية.

ناولها كأس عصير، ودعاها للاقتراب منه... وعيناه تسخران من أي تراخٍ قد يصدر عنها. ولم تستطع تيفاني أن تفهم لماذا شعرت فجأة بالرغبة في التراجع والبقاء بعيدة عنه.

كان ينضح رجولة وجاذبية، ما جعلها تشعر بأنوثتها. سبق لها أن أحسّت من قبل بشعور مماثل... مع «ارماند»، فهو ليس جديداً عليها. لم تكن تخاف الرجال، وكانت من الخبرة بحيث لا تدع أي وضع يهزمها. أخذت تتفرس في وجهه لحظة، محاولة جهدها أن تتبين ما يثير الاضطراب في نفسها، وحاولت أن تنبذ ذلك من ذهنها، فلم تستطع. أهي الكلمات التي استعملها؟ أم هزال وجنتيه؟ أم مغناطيسية عينيه السوداوين

العميقتين؟ هذا ما لا تعرفه، لكن مفهوم الجوع علق في قلبها، جوع متمكن عميق لا يزول ولن يزول. وتملكها شعور فظيع بأنها ستكون الفريسة التالية على مائدته، يمضغها ثم يلفظها عندما تفشل في نيل رضاه.

ـ دعني أنذرك منذ الآن بأنك إذا عضضتني، فلن تنجو من عضة مثلها.

قالت هذا بتهوّر ناسية أنه يفترض بها استعمال الدبلوماسية واللباقة، وأنها ليست في وضع يسمح لها بأن تتحداه بأي طريقة. عليها أن تكون وديعة خائفة متوسلة.

أحدثت ضحكته الرقيقة وخزاً في جلدها. ودفعها حافز إلى إنكار تأثيره عليها، فتقدمت إلى الأمام وأخذت منه كأس العصير:

ـ شكراً لك.

قالت هذا وقد شعرت بالحقارة وهي تجد أن كلماتها خرجت مبحوحة جشاء. ثم رشفت الشراب البارد مسرورة.

ـ زرقة عينيك كلون البحر. لم أر مثل هاتين العينين منذ وقت طويل... إنه لون... مميّز للغاية.

وتوتر وجهه لحظة، ثم عاد يبتسم بسخرية. فقالت رافضة أن تعتبر ذلك مدحاً:

ـ لا أفخر بذلك، إنه عامل وراثي ليس إلا.

فقال متفكهاً لهذا التنصّل: «هل تقول إنك محظوظة؟».

فهزت كتفيها: «إذا كان هذا يسرّك».

فقال ساخراً: «وهو يسرّك بكل تأكيد. كم من الرجال أغويت بهاتين العينين؟».

ـ لا أحد.

قالت هذا بجفاء، واثقة تماماً من أنها لا تميل إلى الإغواء ومن أنها هي نفسها لا تتقبّله. وجويل يعبث معها فقط وكأنها لعبة جديدة قد تلهيه

www.elromancia.com

لبعض الوقت، وهكذا أضافت:

ـ كما أن ليس لديّ أي رغبة في استخدامهما لكي أغويك.

أطلق مرة أخرى تلك الضحكة الرقيقة، وهو يجيب:

ـ لِمَ لا تحاولين ذلك يا سيدة الليل الغامضة؟... فما من شيء أكثر إغواءً مَن هذا.

كبحت تيفاني بحزم ما شعرت به من اضطراب. مهما كانت جاذبيته قوية، فهي لم تأت إلى هنا لكي يعبث معها. سألته:

ـ هل هذا هو السبب الذي جعلك تسمح لي باقتحام حفلتك؟ هل هذا حقاً ما ظننته؟ هل في هذا شيء من المتعة؟

ـ ربما أردت أن تكوني معي، وها أنت هنا وأنا متلهف لما ستفعلينه الآن.

كلامه غير المعقول عن تلهّفه إلى أي شيء، جعل تيفاني تضحك. كل ما فيه يصرخ بأنه رجل متحكّم بمصيره، ولا شيء في العالم يمكن أن يدهشه. مراقبة... انتظار... اختبار... انقضاض مفاجيء... لا بد أن هذه طريقته في العمل، وهي تشعر بذلك في أعماقها. فقالت وهي ما زالت تضحك:

ـ يؤسفني أن أخيّب أملك. ولكن ليس لدي رغبة في إغوائك.

ـ يا للأسف!

ونظر إليها مداعباً بمزيج من التسلية والتأمل وأضاف:

ـ تعنين أنّ عليّ أن أبذل جهدي لكي أغيّر رأيك؟

فقالت بابتسامة عريضة: «هل سبق لك أن أجهدت نفسك للحصول على امرأة؟».

ـ ليس كثيراً، لكنني مستعد دوماً لبعض الاستثناءات.

ـ وهذا رهن طبعاً بما تشعر به من سأم، وهو يناسب غرضي تماماً.

قالت هذا متهكمة بينما راحت تذكّر نفسها بأنها ليست هنا للغزل.

ـ وأنا مسرورة لأنك تشعر بالسأم، لأن هذا يعني أن لدي فرصة

لإثارة اهتمامك بمشروع جديد، وهذا ما في ذهني.

ـ آه...

قال هذا لاوياً شفتيه بسخرية.

ـ حسناً، ما ينعش النفس، على الأقل، هو أن نبدأ بصلب الموضوع، وهذا يوفّر الكثير من التظاهر والتكلف...

وأخذت عيناه شبه المغمضتين تقيّمان مفاتن جسمها بتمهّل.

ـ رغم أنني، معك أنت، كنت سأستمتع بالتظاهر بعض الوقت.

اجتاحت جسدها موجة ساخنة، وقالت بجفاء:

ـ أنا لا أدعم مطالبي بالوعود، يا سيد فيبر، وأنا لا أكره شيئاً أكثر من هذا. لقد جئت إليك طالبة العون، وباتفاقية صريحة مستقيمة.

رفع حاجبه متحدياً بسخرية عندما التقت نظراتهما:

ـ أنت تعرضين صفقتك متأنقة جداً. وتستعملين مزاياك كلّها بشكل مقنع للغاية.

ـ ذلك لكي أتجنب التدقيق ولكي أبدو مدعوة فعلاً.

أجابته بحدة وعيناها تنفيان أي تفسير آخر لمظهرها، ثم أضافت:

ـ لقد جعلت من نفسك رجلاً لا يمكن الاقتراب منه، يا سيد فيبر. وهذا سبّب بعض الصعوبات التي واجهتها. لقد جعلتني أتكبّد من الإزعاج ما لم أعهده، فمنذ أشهر وأنا أحاول أن أجعلك تصغي إليّ.

هز كتفيه من دون أن يعتذر:

ـ أنت وألف غيرك لا يهتمون بي مثقال ذرة، إلا إذا احتاجوني لغرض ما. هذا هو اسم اللعبة: «الغرض».

وسكت لحظة ليضيف تأكيداً خبيثاً:

ـ والآن، ما هو مبلغ المال الذي تريدينه؟

ربما كان في صوته نبرة احتقار... مما جعل تيفاني تشعر بأنها نافهة بشعة منبوذة، وتملكها الغضب. بأي حق ينبذها بمثل هذا الازدراء حتى من دون أن يصغي إليها؟ وقالت ثائرة:

ـ أنا لست هنا لأمد يدي، بل يمكنني أن أعطيك شيئاً بالمقابل...

فسألها بسخرية وهزء: «ماذا بإمكانك أن تعطيني؟».

ـ الإحساس بالهدف، بالانتماء.

بدا على ملامحه ضجر قديم ثم قال بصوت متعب:

ـ هذا يكفي، أدخلي صلب الموضوع، فأنا أقابل الكثير من الناس ذوي المشاعر العميقة الخيّرة لأجل أهدافهم، وأنا لا أريد مواعظ. سأسلم بأنك فاعلة خير أخرى بما أنك تدّعين عدم الاهتمام بإغوائي. وفّري عليّ هذا الكلام، فهو مع الوقت يصبح مملاً للغاية، ومزاجي الليلة لا يسمح لمواضيع مماثلة. وما دام الغرض هو دوماً المال، أخبريني كم تريدين وسوف أفكر في الأمر.

شحب وجهها عندما تحوّل غضبها إلى شعور بالخزي. إنها جاءت لتستغله، وهي أنانية في طلب حاجتها كأي شخص آخر. عمياء، لم تفكر في أن له هو أيضاً احتياجاته، احتياجات لم تُشبع قط... احتياجات يخفيها خلف قناع من السخرية.

أرادت أن تخبره بأنها لا تريد منه شيئاً، ولكن هذا لم يكن حقيقياً، ولا يمكنها أن تتراجع الآن. فالآمال التي يعلّقها «كارول» و«آلان» على المستقبل تعتمد على نتيجة هذا الاجتماع. أو اجتماع آخر مع شخص آخر، في حال أخفقت في إثارة اهتمام «جويل فيبر». وقالت بإخلاص واضح:

ـ أنا آسفة لتفكيرك هذا، وأتمنى لو أنني لست مضطرة إلى طلب العون منك. وليس في طلبي هذا ما يمنح البهجة، لكنك الشخص الذي يمكنه المساعدة. ليس من خلال المال بقدر ما هو من خلال السند والخبرة اللذين يقتضيهما الأمر، وحتماً هناك مقابل ستحصل عليه.

ـ أي مقابل؟

وبدت كلماته مشككة.

ـ الشعور بالرضا قبل أي شيء آخر.

قالت تيفاني هذا ببطء، مدركة أن المال ليس من أولوياته. وإذا كان لهذا اليخت أي معنى، فهو أن جويل فيبر قد كسب، من دون شك، من المال أكثر مما يمكنه صرفه.

وبدت في عيني جويل، بالرغم عنه، لمحة اهتمام:

ـ لا تسكتي الآن، الفضول يدفعني إلى معرفة ما تتصورين أنه يرضيني.

ـ لقد أسست «جزيرة ليجر»، وكنت القوة الدافعة خلف المشروع. من المؤكد أن هذا أشعرك ببعض الرضا.

وسكتت تيفاني وهي تدرس كلماتها بحذر.

ـ (بعض).

قال هذا، لاوياً فمه مظهراً تقديره لنقاشها.

ـ ألن تشعر بقدر أكبر من الرضا لو أنجزت شيئاً للمكان الذي له عليك حق أكثر من قطعة أرض وجدتها صدفة؟.

توترت شفتاه وشعّ من عينيه رفض قاسٍ، وهو يقول ببرودة:

ـ ما من مكان له عليّ أيّ حق، أنا أشتري وأبيع، وليس لي صلة بأي شخص أو أي شيء. أنا لا أنتمي إلى أي مكان. وأظن أن هذا ينهي نقاشك بشكل قاطع. إذن، يا سيدة الليل، أي مغريات أخرى تحتفظين بها لوقت الحاجة؟ ما هي خطوتك التالية؟.

تضايقت تيفاني لشعوره بتلك الوحدة المرّة، فليس من السهل ألاّ يكون للمرء أحد، ولا مكان يسميه موطناً... وارتجفت لفكرة هذا الفراغ الهائل في حياة الشخص ولم تستطع أن تفهم ذلك وهي المعتادة على أن يكون لها أسرة كبيرة وحشد من الأصدقاء. لا بدّ أنّ نجاح جويل فيبر قد كلفه غالياً إذا كانت هذه نتيجته.

ـ أنا أعلم أن عشرين سنة مرّت، ولكن، ألا تخطر قرية «هاڤن بي» في بالك؟.

سألته وهي عاجزة عن التصديق أن قريته ما عادت تعني له شيئاً على

الإطلاق، إذ لا بد أنه عاش سنوات سعيدة أثناء صباه ما زالت ذكرياتها تعاوده حتى الآن.

حدق إليها جامداً، وقد تملكه توتر انتقل إلى تيفاني فحبس أنفاسها وجمّد تفكيرها جاعلاً نبضها يتسارع بانفعال بالغ. وفجأة حدث شيء مبهم وغامض بالنسبة إليها، إنما شعرت به كحقيقة واقعة.

ـ هاتان العينان...

كانت هاتان الكلمتان أشبه بأنفاس انطلقت من عالم ضائع غريب. ثم، وبلهجة خشنة تابع يقول:

ـ من فعل هذا؟ من أرسلك؟

ـ لا أحد، إنها فكرتي.

ـ من هما أبواك؟ وأقاربك؟

تملك تيفاني ارتباك بالغ، ولكن بما أن لا أقارب لها على الإطلاق، على حدّ علمها، أجابته على الفور:

ـ ليس لدي أقارب.

قالت هذا بحزم شاعرة بحاجة إلى أن تتمسك بهذا الوضع.

ـ ليس لدي أحد بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكن، من ناحية أخرى، لدي أسرة كبيرة جداً. ومن أفضل الأسر.

ـ ما اسمك؟.

قال هذا بخشونة فأجابت بشكل آلي: «تيفاني جايمس».

ـ جايمس...

ردّد الإسم وكأنه يربط بينه وبين موضوع شعرت أنه كان على غاريت أن يطلعها عليه، ويحذرها منه. وقد ازداد اضطرابها عندما استدار جويل فيبر ليفرغ بقية شرابه في البحر، فكان هذا أشبه بقوله إن الحفلة قد انتهت بالنسبة إليه. وعندما عاد ليستدير إليها، بدا منطوياً على نفسه. وتلاشت كل المغناطيسية التي كانت تنبعث منه ودفعها التحفظ البالغ الذي بدا في عينيه إلى البقاء بعيدة عنه.

ـ أظن أن علينا متابعة هذا الحديث في قمرتي الخاصة.

قال هذا بلهجة بدت أمراً ولوى شفتيه قائلاً: «فليكن الأمر سراً. يمكنك أن تفصحي عما في ذهنك من دون خوف من شرود أو مقاطعة، يا تيفاني جايمس. ولكن انتبهي إلى شيء واحد. وهو أنني سأصل إلى أعماق هذه... المؤامرة. وأيضاً سأصل إلى أعماقك».

ورفع يده ورسم بإصبعه خطاً على وجنتها، مضيفاً:

ـ أنت تعبثين مع قوى... لا يمكن مقاومتها، فإذا ما خرجت تلك القوى عن السيطرة، لن تلومي سوى نفسك.

كان على قراره هذا أن يبهجها، فهو الآن يمنحها الفرصة التي أرادتها، وهي أن يصغي إليها. لكن كلماته كانت من الشؤم والوعيد بحيث شعرت بضيق بالغ إزاء الوضع برمّته. ومن المؤكد أن كل الجاذبية التي شعرت بها نحوه في البداية، قد تلاشت أثناء اللحظات الأخيرة، مع أنها لم تكن تنوي إغواءه. ولم ينتظر موافقتها على أيّ حال، فقد جرّها خلفه وسار بين حشود المدعوين، مجيباً على التعليقات بأجوبة مختصرة، دونما الإذعان أمام أي محاولة لإيقافهما.

تبعته تيفاني بصمت، محدثة نفسها بحزم بأن ليس هناك ما تخافه. فهي ليست شريكة في أي مؤامرة، وحياتها كتاب مفتوح، كما أنه ليس في أعماقها ما ينبغي الوصول إليه رغم أن الفضول تملكها لمعرفة السبب الذي جعل جويل فيبر يظن ذلك. ما الذي تعنيه له قرية «هاڤن بي»، يا ترى؟ أدركت تيفاني من ردة فعله، أن هناك أموراً كثيرة تجهلها، ومرة أخرى، أخذت تتذمر من غاريت في قرارة نفسها لأنه تركها في دوّامة جهل مطبق.

لعل الصياد العجوز لم يكن يعلم الكثير، أو أنه رأى من الحكمة ألاّ يعكر اقترابها من جويل فيبر بأي موضوع من الماضي. ولكن، بالرغم من ذلك، لم تستطع تيفاني منع نفسها من التساؤل عن علاقة لون عينيها بالموضوع، وما هي القوى التي لا يمكن مقاومتها والتي يمكن أن تخرج عن السيطرة؟

لم يكن ثمة سبب على الإطلاق لهذا الانجذاب المذهل الذي شعرت به نحو هذا الغريب القوي المسيطر. وعلى أيّ حال، يبدو واضحاً أن هذا الانجذاب لن تُحمد عقباه، نظراً للطريقة التي يرى فيها جويل فيبر الحياة. ولهذا، يجب أن تتجاهل تأثيره عليها، فهي قصدته لغرض واحد فقط وعليها أن تركّز على هدفها، وهذا هو المهم.

* * *

٤ ـ شمس الحقد

فتح جويل فيبر باب قمرته الخاصة وأشار إلى تيفاني بالدخول. مرّت أمامه، مدركة تماماً العداء الواضح المنبعث منه. تنقّلت عيناها بتوتر في أنحاء الغرفة المترفة، وجالت نظراتها بين الديكور الخشبي الرائع الجمال، واللوحات الفنية المعلقة على الجدران، والأثاث الغالي الثمين، والسجادة السميكة الفاخرة، والسرير الواسع...

صوت الباب وهو يُغلق خلفها جعل دقات قلبها تتسارع، وأجفلت مستديرة إلى الخلف، تواجه الخطر بشكل غريزي. واستند جويل إلى الباب، ساداً عليها طريق العودة. وهذا لا يعني أن تيفاني كانت تنوي ذلك، فهي مصممة على عرض مشروعها عليه، مهما كان الثمن. ولكن، بشكل ما، بدا التهديد الذي أطلقه على ظهر المركب حقيقياً تماماً الآن وهي في غرفته الخاصة هذه.

لوى فمه وقال ساخراً من توترها:

ـ ألا تشعرين بالشجاعة الآن، يا آنسة جايمس؟.

فقالت متحدية وعيناها شاخصتان إليه: «لدي من الشجاعة قدر حاجتي، يا سيد فيبر. ليس لدي ما أخفيه».

ـ أتعنين بأنّ لديّ ما أخفيه.

فسألته: «وهل لديك ما تخفيه؟».

أطلق ضحكة رقيقة أحدثت وخزات في جسدها:

ـ يا عزيزتي الآنسة جايمس، الأسرار التي أخفيها هي أسراري أنا،

www.elromancia.com

وستبقى كذلك.

ابتعد عن الباب وتقدم نحو الخزانة بجانب السرير، فتح علبة سيكار وأخذ واحداً وأشعله بحركة عنيفة. مال برأسه إلى الخلف وهو يدخن، ثم استدار ببطء، وعيناه تقدحان تحدياً قاسياً، يسألها بعفوية:

ـ هل هذا يقلقك؟.

بدا وكأنه يتحداها أن تنتقد عادة التدخين لديه، وأنه يود أن ينقضّ عليها لأي سبب، ثم يمزقها إرباً إرباً.

ـ لا...

أجابت ببساطة، فحرمته تلك المتعة. لم تكن تفهم ما يجري في ذهنه، لكن التوتر الذي انبعث منه جعلها تشعر بضيق بالغ. أشار إلى كرسي وقال لها:

ـ إجلسي، وأخبريني عن نفسك. سيسرني جداً أن أسمع سلسلة الأحداث الهامة التي قادتك إلى بابي...

خرجت هذه الكلمات من فمه بدون إخلاص حقيقي، وترددت تيفاني إذ شعرت أن هذه اللامبالاة مناقضة لشعوره الحقيقي. لكن شعورها هذا كان شخصياً، وذكرت نفسها بحزم أنها ستضيّع الجهود التي بذلتها للوصول إليه، بالخوض في مواضيع شخصية. فهذا ليس هدف مجيئها إلى هنا ولا يجدر بها أن تتحدث مع جويل فيبر سوى عن العمل.

اتجهت نحو الكرسي بحزم، ووضعت سترتها وحقيبة يدها عليها. شعرت بنظراته تراقبها من رأسها حتى أخمص قدميها، فجلست واضعة ساقاً على ساق، آملة أن تهدىء بذلك أعصابها المتوترة.

استجمعت إرادتها ورفعت بصرها إليه بكل ما استطاعت من هدوء وبرودة. وكان هو يتأملها بعينين ضيقتين فلم تستطع أن تتبين ما يجول في ذهنه، فقد كان وجهه جامداً تماماً.

ـ لقد عادت الحيتان المحدّبة إلى خليج «هاثن بي».

قالت هذا محاولة إثارة اهتمامه منذ البداية.. رأت بريق دهشة في

عينيه، فتابعت تقول آملة أن تجعله يصغي إليها:

ـ لا بد أنك تتذكرها، يقولون إن هذه الحيتان كانت تأتي دوماً إلى خليج هاثن بي عندما كنت صبياً. ثم أخذت تنقرض حتى أصبحت تعد بالمئات فقط، إلى أن اختفت تدريجياً.

قطب جبينه، بدا جلياً أن ما سمعه لم يعجبه، لكنه لم يقاطعها وهي تتابع: «لقد بدأت الحيتان بالعودة منذ سنوات قليلة، وعددها يزداد في كل مرة».

وبدت اللهفة في صوتها حين أضافت:

ـ ربما لأن الخليج محميّ من العواصف الجنوبية، الهوجاء، أو ربما لأن المياه هادئة دافئة. أياً يكن السبب، المهم أنها ما زالت تأتي. لقد عدّها «ألان» السنة الماضية فكانت ألفاً، وبات الناس يرونها باستمرار.

وتنفست بسرعة مكملة حديثها: «يمكننا أن نجذب الكثير من السياح لرؤيتها، وإذا أمنّا أسباب الراحة والمتعة والدعاية في الأماكن المناسبة، أنا واثقة من أن ذلك سيجذب السائحين، ويصبح لدينا نشاط ناجح. والأمر، ببساطة، مسألة خبراء...».

فقاطعها بلهجة حاسمة:

ـ أنت لا تعرفين عمّا تتحدثين. ليس لديك فكرة عما يتطلبه....

ـ بالعكس، لدي فكرة شاملة عما يتطلبه اجتذاب السياح.

فرفع حاجبه بارتياب ساخر: «ما هي تجاربك العملية؟».

ـ خلال السنوات الثلاث الماضية، عملت في نادي «ميديتيرانيان» في «نوميا». وقبل ذلك عملت في شركة سفريات في «نيوزيلاند»، ثم في الإعلان عن منتجعات «فيجي». كذلك قمت برحلات ومغامرات سياحية إلى جبال «الهيملايا» و«التيبت»، ثم سلكت «طريق الحرير» إلى الصين، وأنا أشك في أن يكون هناك أمر يريده السياح ويمكنك أن تخبرني عنه، يا سيد فيبر».

فقال بلهجة لاذعة:

ـ إنها حياة حافلة للغاية. إذاً ما الذي تريدينه مني الآن؟.

غضت تيفاني الطرف عن لهجته اللاذعة. لقد حانت لحظة المكاشفة. وأبقت لهجتها عملية مرحة:

ـ في البداية، أريد مساندتك في عرض فيلم وثائقي عن الحيتان في «هاڤن بي».

ـ أنت تتحدثين عن استثمار يكلّف مئات الآلاف من الدولارات...

فأسرعت تقول:

ـ لن يكلّف هذا القدر من المال، خصوصاً بمساعدتك. يمكنني أن أحصل على ذلك مجاناً، مقابل لا شيء تقريباً.

ـ كلام فارغ. حدثيني عن أسرتك تلك.

ـ إنها كبيرة جداً، نحن أربعة عشر فرداً، لنا جميعاً الوالدين بالتبني نفسهما، وكلنا نساعد بعضنا بعضاً. وقد سبق وقمت بعدد لا بأس به من الأفلام التلفزيونية عن الإعلانات السياحية. وأنا أعرف كيف يتم تحضيرها، فقد سبق وعملت في التلفزيون قبل أن أعمل في مجال السياحة، وأحد أخوتي من كبار مدراء التلفزيون المنفذين، ويمكنه أن يوفّر لي المصوّر. يمكننا أن نحصل على الفيلم الوثائقي بتكلفة ثمن الفيلم الخام في السوق، وأنت ستستفيد من عرضه على الشاشة. وبعد ذلك يمكنك أن تبيعه إلى المحطات التلفزيونية الأخرى. ويمكنك، إذا شئت، أن تجني مالاً من ذلك.

قطب جبينه، ولم تعرف تيفاني ما إذا كان غير مصدق أو غير موافق، ثم قال:

ـ وما الفائدة التي ستجنينها أنت؟

عليها الآن أن تضعه في المسار الصحيح، لم يكن الفيلم الوثائقي مهماً إلى هذا الحد، لأن أخاها يمكن أن يعالج الأمر بدون مساعدة جويل فيبر، إذا ساءت الأمور. ولكن ما هُم حقاً بحاجة إليه، هو تطوير منتجع، وما من أحد أفضل من هذا الرجل للقيام بذلك. وتنفست تيفاني بعمق، ثم

قالت:

ـ «هاڤن بي» تموت. لقد أصبحت خارج عصرها مثل غيرها من قرى صيد السمك. وأنا أريد أن أنقذها. كما أن المستقبل لا رجاء فيه إلا إذا تمكنّا من جعل المنطقة تواكب القرن الحادي والعشرين. وهذا يعني تبني صناعة أخرى، وهي السياحة التي تنتظر من يقرع بابها. أنا أعلم ذلك إنما نحن بحاجة إلى عون.

ـ ماذا تقصدين بـ (نحن)؟

قال هذه الكلمات باشمئزاز.

ـ يمكنك أن تقول القرية كلها. وبما إن «هاڤن بي» موطنك، فكرنا في... فكرت في....

صححت قولها بسرعة وقد أزعجتها النظرة المرّة الساخرة في عينيه: «كانت فكرتي وحدي، في الحقيقة. وأنا أعلم أنها ستنجح. كل ما تحتاجه هو التشجيع الحسن وإنشاء مرافق الحياة ووسائل الراحة والمتعة...».

فقاطعها بعنف:

ـ لن تحصلوا على المساعدة مني، أنا لن أحرّك ساكناً لمساعدة سكان «هاڤن بي»، فأنا أكره تلك البلدة، أكره ما فعلته بي وما فعلته بآخرين غيري. بالنسبة إليّ، مات كل ما كان حسناً فيها منذ عشرين عاماً. إنها ميتة بالنسبة إلي ولا رغبة لديّ في إحيائها من جديد.

نطق الكلمات الأخيرة بسخط، فانهالت على رأس تيفاني أشبه بضربات غاضبة، مسبّبة لها الدوار. حدّقت إليه وهي تكاد لا تصدق ما سمعت، بينما وقف هو أشبه برئيس قبيلة قديم يلقي بإدانته وشفتاه متوترتان، وعيناه أشبه بفجوتين سوداوين تقدحان شرراً.

وعلى الرغم من أن نظراته كانت مصوبة إليها، فقد شعرت بأنه لم يرها على الإطلاق. وعندما عاد يتكلم، همس همساً فخرجت الكلمات من أعماقه بغصة وحرقة: «لا شيء يسعدني أكثر من رؤيتها تنازع. عندئذٍ تعود الأمور إلى مجراها».

والتفت إلى منفضة السكائر يطفىء فيها سيكاره بعنف ويسحقه فيها وكأنه يريد أن يسحق الجنس البشري بأجمعه.

أخذت تفكر في أن غاريت العجوز أخفى عنها أموراً كثيرة، كان يعرف كيف ستكون ردة فعل جويل فيبر. ومع ذلك شجعها على متابعة خطتها حتى اللحظة الأخيرة، لماذا؟ هل كان الرجلان على علاقة ذات يوم؟ هل حدث شيء مريع بينهما ما زال تأثيره يشوّه حياتهما حتى الآن؟

ـ هل تتذكر «غاريت ماكوغ»؟ هل يعني لك شيئاً؟

فتصلّب ظهره، واستدار إليها ببطء بالغ وقد شحب وجهه وأخذت عيناه تسبران أعماقها أشبه بأشعة شمس حارقة.

وسألها: «هل هو وراء هذا المشروع؟».

ـ لا، لقد أخبرتك أنها فكرتي أنا، لكنه أنذرني بأن من غير المحتمل أن تتعاون معي.

التوت شفتاه بإقرار ساخر:

ـ لو أنك استمعت إليه لوفّرت على نفسك الكثير من الوقت والجهد.

فصرخت بحرارة، يدفعها حس قاهر بعدم جدوى قراره: «لماذا؟ مضى على ذلك عشرون عاماً. حتى وإن لم تكن سعيداً هناك، وجدّك مات في العاصفة، كيف يمكنك أن تحمل كل ذلك الحقد لقريتك؟»

فقال ببرودة الثلج:

ـ هذا ليس من شأنك، يا آنسة جابمس، ولا أريد أن يتطفل أحد على حياتي.

حملت لهجته الوعيد، فقالت بحدة:

ـ أنا لا أتطفل، كل ما أقوله هو أنه مهما كان الحقد الذي تكنّه لقريتك، فقد مضى عليه جيل كامل. والجيل الجديد ليس لديه شيء ضدّك، أفلا تساعدهم؟

وعندما لم يجب، ازداد توسلها حرارة:

ـ لا يجدر بك أن تلومهم، مهما كانت ذنوب آبائهم، لا يحق لك أن

تنتقم من الأبناء بسبب الآباء. هذا ليس صواباً ولا عدلاً.

فشخر ساخراً:

ـ صواب، عدل، إذا كنت تبحثين عن الصواب والعدل في هذا العالم، فأنت تبحثين عبثاً!

لا جدوى من إقناعه! لن يتزحزح عن موقفه، مهما قالت. ولعل له أسبابه، رغم أنها لم تفهمها. لقد بدا لها حقوداً إلى أقصى الحدود.

لكنها لا تعرف ما عليها أن تفعل حيال ذلك، وقفت وهي تتنهد بعمق:

ـ أليس هناك ما يمكنني قوله لتغيير رأيك؟

طرحت سؤالها هذا، كارهة أن تذعن رغم الهزيمة التي تواجهها.

فرد عليها بحزم وخشونة: «لا شيء».

لم تعرف تيفاني ما الذي جعلها تسير نحوه... ربما شعور بالذنب لإثارة ألم خامد، ورغبة منها في تخفيفه بطريقة ما. وربما للتكفير عن اقتحامها، بشكل أعمى، ذكريات أثّرت في نفسه بشكل بالغ بحيث لم تستطع عشرون عاماً أن تمحوها من ذاكرته.

كان وجهه جامداً وعيناه شاخصتين إليها، وجسده متوتراً الى حد أنّ يديه تصلبتا على جانبيه عندما وقفت امامه. أحست به يرقبها بحذر حاد بعينيه اللامعتين الضيقتين. لقد نجح... ولكن بأي ثمن؟

مدّت يدها تلامس خده برقة وحنان غريزي كانت لتشعر به نحو أي مخلوق جريح، وسألته محاولة الوصول الى أعماقه:

ـ كان باستطاعتك أن تصبح رجلاً كريماً، فما الذي جعلك هكذا؟

بدا وكأنما ضربته صاعقة سمرته مكانه. وإذا بعاصفة من المشاعر العنيفة تتصارع على وجهه فيما ارتفعت يده تمسك معصمها بشدة وتبعد يدها عن وجهه لئلا تلمسه مرة أخرى وهو يقول بخشونة:

ـ أنت ماذا؟ نوع من النقمة أرسلت لتتملكني؟

فهزت رأسها، شاعرة بالعطف أكثر من الاستنكار:

ـ أنت وحيد. ويا ليتني أجد ما أقوم به لأجلك.

ـ اللعنة على هاتين العينين! أتعلمين ما تفعلينه بي؟

قال هذا وقد شحب وجهه. وقبل أن تتمكن من التفكير في ما يعنيه، أو أن تجيبه جذبها اليه، وأخذ يداعب شعرها بيده. تشابكت أصابعه بخصلات شعرها الطويلة الحريرية، فمالت برأسها الى الخلف. وفجأة ضمها بقوة بحيث لم تستطع أن تقاوم التجاوب معه، حتى أنها لم تفكر في أنها، إذا فتحت ذراعيها، إنما تفتح أبواب جوع لا يشبع أحست به منذ لحظات لقائهما الأولى.

ضمّها بحرارة محمومة أحدثت فيها دوامة من الأحاسيس الجارفة، فتشبثت به بحاجة ذهبت برشدها وجعلتها من الوهن بحيث لم تستطع أن تسلخ نفسها عنه. شعرت وكأنه يجذب منها كل ما يستطيعه، وأثارت قوته الرجولية فيها مشاعر عنيفة لم تعرف مثلها من قبل. وعندما ابتعد اخيراً عنها كان كيانها كله يرتجف ودفن وجهه في شعرها وراح يشم عطرها.

ـ يجب أن أنالك كلك.

ـ لا...

لم تستطع أن تتكلم، وكان صوتها متهدجاً متقطعاً، فهمس:

ـ بلى، سأجعلك في غاية السعادة.

ـ لا...

وتنفست بعمق، وأرغمت نفسها على الابتعاد عنه قليلاً.

ـ أنت تريد أن تأخذ وحسب، لا أن تعطي.

ـ سأعطيك كل ما أستطيعه.

رأت أنه قد يتصرف بسخاء، لكنها بعد ذلك لن تكون سوى امرأة أخرى جذبته لفترة قصيرة ثم تخلّى عنها. ولم تكن تيفاني تريد علاقة عابرة سواء معه أو مع غيره، بل أرادت حباً حقيقياً.

كان عالم جويل فيبر بعيداً جداً عن عالمها. كما أن خاتم «أرماند» في

إصبعها يذكرها على الدوام بأن الرجال الأغنياء يتخذون النافهات مثلها صديقات عابرات وليس زوجات، وهي ليست حمقاء لتقع في الغلطة نفسها مرة أخرى. وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي تلتقي فيها جويل فيبر. فالآن وقد انتهى العمل بينهما، لم تعد تريد رؤيته من جديد.

مدت يدها لتبعده عنها وتتمكن من النظر في عينيه. عينان سوداوان لا قرار لهما يسهل عليها أن تضيع فيهما، إنما لا يؤمّنان لها أي مستقبل.

فقالت وقد أنبأها حدسها أن هذا ما يريده: «لا أستطيع أن أصل إليك، أليس كذلك؟ أنت تريد النسيان فقط، فتستعين بي».

ثم أضافت: «وبعد ذلك لن أستطيع أن أتركك».

فأجاب وما زال صوته ينضح بالرقة:

ـ ربما لن أرضى بأن تتركيني. إبقي معي، حاولي ذلك.

ـ جويل... لقد جربت ذلك الطريق... إنه أكثر الطرق وحشة في العالم، وليس في نهايته سوى الألم. إنه أشبه بموت بطيء، لا بل أكثر من ذلك بالنسبة إلى المشاعر حين لا يكون هناك حب ملزم، أليس كذلك؟

بدا على وجهه ظل العذاب السابق مما جعله يتوتر:

ـ لماذا تحدثينني بهذا الشكل؟.

فأجابت بشيء من الاهتمام:

ـ ألم تحدثك امرأة بذلك يوماً؟.

فقال بخشونة:

ـ لا تفعلي هذا، فقد فات الأوان؟.

ـ لا، لا، يا جويل. لا يفوت الأوان أبداً لاكتشاف الحب.

فبدت السخرية على فمه:

ـ أنت تسلكين طريق العودة إلى مشروعك، أليس كذلك؟.

ـ آسفة لتفكيرك هذا.

قالت هذا بحزن، وقد أدركت أنها فقدته. حتى هذه التجربة

www.elromancia.com

العاطفية لن يكتب لها الاستمرار، وأصبح من المستحيل الآن أن يستعيد مشاعره بعد أن عادت إليه سخريته.

ـ آن الأوان لكي أرحل.

لم يحاول الإمساك بها عندما تملصت من عناقه. ولا حاول أن يتبعها وهي تسير نحو الباب، وخيبة الأمل في كل خطوة تخطوها. حملت سترتها وحقيبة يدها، واستجمعت كبرياءها وكرامتها، ثم استدارت تواجهه مرة أخرى. كان يراقبها بعينين غامضتين شاردتين. ورسمت على شفتيها ابتسامة مهذبة:

ـ شكراً للوقت الذي منحتني إيّاه، أرجو ألاّ أكون قد أفسدت عليك حفلتك.

فقال بتوتر: «هاڤن بي» لن تنجح، شأنها شأن المشاعر بيننا يا تيفاني».

فسألته: «ولماذا!».

ـ أنا أعرف ذلك المكان جيداً، عمليات النقل والتموين فيه لا تبشر بالنجاح حتى مع وجود الحيتان، صدقيني، لن تحصلي إلا على سباح عرضيين يأتون صدفة، وهذا لا يكفي لبناء مشروع ينعش البلدة.

لكن العناد بدا على وجهها:

ـ الأماكن الأخرى لديها إمكانيات أقل وقد نجحت، و«نوزا» خير مثال على ذلك، حتى أن شاطئها ضيق لا يسمح بدخول المراكب و...

ـ وماذا لو هجرت الحيتان القرية مجدداً؟

ورفضت تيفاني أن تذعن.

ـ «نوزا» ليس فيها حيتان، ومع ذلك نجحت.

ـ ولكن «نوزا» أنشئت على مدى سنوات طويلة.

ـ ونحن سننشىء «هاڤن بي».

أجابته بعزم وقد استحالت خيبة أملها غضباً لمعارضته المستمرة، خصوصاً بعد أن حاولت جهدها أن تفهمه.

ـ كلما جعلناها تزداد شعبية كلما ازداد تدفق الأموال. يمكننا إنشاء مقاهي، وفنادق صغيرة للسياح.. ويمكن استعمال سفن صيد السمك لأخذ السياح في نزهة بحرية لمشاهدة الحيتان. أما ما نحتاج إليه حالياً فهو نشاط إعلاني، وشاشة التلفزيون خير من يقوم بذلك.

فقال بحدة: «قلت إنك تريدين خبرتي وها قد حصلت عليها، دعي عنك ذلك، هذا المشروع لن ينجح!».

فردت عليه بغضب:

ـ ألا يمكن أن يكون حكمك هذا متحيزاً؟ لو كنت تريد أن تساعدنا....

ـ لن تجدي أي رجل أعمال يهتم بهذا المشروع.

قال هذا بإصرار عنيف، ثم عاد يقول بسخرية:

ـ إلا إذا استطعت أن تثبتي أنه سيدرّ ربحاً مالياً.

فبردت العزيمة والتمرد في عينيها:

ـ إذن، سأثبت ذلك، وأنت ستكون الخاسر يا جويل فيبر، لأن «هاڤن بي» ستجذب أعمالاً كبيرة.

تنهد متثاقلاً، ثم عبس وقال:

ـ ثمة مشاريع يا تيفاني تبدو جيدة في حينها، ولكن عندما تحاولين تنفيذها، لا تنجح. وما دمت ذكرت التلفزيون، سأتخذ محطتي مثلاً. عندما اشتريتها بدت لي فكرة ممتازة، ولكن فيما بعد لم يستطع أيّ من المدراء العامين الثلاثة الذين عيّنتهم أن يزيد عدد المشاهدين بينما بدا واضحاً أن ذلك ممكن...

فقالت بازدراء وعدم اكتراث بهذه المشكلة:

ـ ما كان هذا بالأمر الصعب.

ـ المعذرة؟.

ـ هذا ليس صعباً، لأن الخطأ يبدو واضحاً لكل متفحص.

ـ حسناً، لم يكن هذا واضحاً لأي شخص آخر في الشركة.

ـ إذا لم أستطع التصرف بشكل أفضل، كنت لأذبح نفسي.

قالت هذا دون أي خجل، فلوى فمه بابتسامة ساخرة:

ـ من سوء الحظ أن المدراء الذين عينتهم لم يكونوا بهذه المهارة. لذا اضطررت لأن أطردهم جميعاً.

حدّقت تيفاني في تلك الابتسامة، أتراه خفف من معارضته، وهل مسّت شيئاً في داخله؟ إن تمكّنت من أن تحظى باهتمامه، فمعنى هذا أنها لم تخسر بعد، وسألته بأمل إنما من دون اقتناع:

ـ إذا أخبرتك بطرق تتمكن بها من زيادة عدد المشاهدين، هل تساند الفيلم الوثائقي الذي سأعدّه عن «هاڤن بي» وتمنحه وقتاً جيداً؟ أتعهد لك بأن يكون فيلماً جيداً.

رأت تيفاني أن هذه ستكون البداية، وبعد ذلك قد يمنح «هاڤن بي» الوقت والاستثمار اللازمين.

نظر إليها متفحصاً لفترة بدت طويلة جداً قبل أن يهز رأسه. لم تستطع تيفاني التي حبست أنفاسها أولاً، أن تصدّق قراره. كانت متلهفة إلى أن يغيّر رأيه، ليس لأجل «هاڤن بي» فقط، ولكن لكي تتسنى لها فرصة البقاء معه وقتاً طويلاً، فتعرف المزيد عنه. وقالت ضارعة:

ـ يمكنني القيام بذلك، أعني زيادة عدد المشاهدين. أحد أخوتي قد أنجز لتوه ذلك لمحطة تلفزيون سيدني، ولا بد أنك تعرف اسمه. «زاكاري لي جايمس» الجميع يطلب خبرته.

فسألها جويل فيبر وقد لمعت عيناه اهتماماً: «وهل يمكنك إحضاره إليّ؟».

ـ لا، فهو الآن في سيدني. ولكن بإمكاني الحصول على نصيحته. إننا دوماً نساعد بعضنا البعض في أسرتنا.

ـ لقد سبق وقلت ذلك.

اجتاز الغرفة متوجهاً نحوها ببطء جعل تيفاني تحبس أنفاسها مرة أخرى، وقد جرفها انجذابها إلى هذا الرجل الواقف على بعد خطوة منها، واشتبكت عيناه السوداوان بعينيها بعنف:

ـ إنسي أمر «هاڤن لي» يا تيفاني. إذا كنت تريدين تطوير مشروع السياحة، تعالي واعملي معي.

رغبته في إبقائها في حياته جعلت قلبها يخفق انفعالاً. ولو كانت الظروف مختلفة، لتشبثت بعرضه هذا بلهفة وشكر، ولكنه يطلب المستحيل، وقالت بأسف مؤلم للغاية:

ـ ليت الأمر مختلف، ولكنني مضطرة للدفاع عن قضية «هاڤن بي» من أجل أختي وابنها. إنهما بحاجة إلى ذلك، ولا يمكنني أن أخذلهما.

رأت التراجع في عينيه... الرفض. وفجأة، لم تعد تيفاني تستطيع احتمال المزيد. شعرت برغبة في البكاء، وهو ما لم تفعله منذ افتراقها عن «أرماند» ولن تسمح لذلك بالحدوث مرة أخرى.

ـ شكراً لعرضك هذا، يا جويل. ربما... يوماً ما، الآن يجب أن أذهب.

قالت هذا واتجهت إلى الباب مباشرة بدون أن تنتظر جواباً منه. لكنه سبقها إليه وفتحه لها، متمتماً:

ـ سأرافقك إلى الخارج.

لم تجب. لم تستطع أن تتكلم، كان في حلقها غصة. شعرت تيفاني بالارتباك لقرب جويل منها وهو يتبعها على الجسر المتحرك الذي يصل اليخت بالرصيف ومنه إلى الباب الذي يؤدي إلى الصالة الشاسعة حيث كانت الحفلة لا تزال في أوجها. وابتسمت بشجاعة عندما اقترب منها ليفتح لها الباب.

لم تكن مستعدة على الإطلاق لذلك التهليل الحماسي المفاجيء الذي تفجر حولها ولذلك الضوء الذي بهر نظرها حين دخلت الصالة. رفعت ذراعيها تتجنبه وهي تتراجع وتكاد تتعثر. وفي تلك اللحظة شدّها جويل إليه ووضع ذراعه حول خصرها لكي يحميها. وهتفت امرأة بابتهاج:

ـ أمسكنا بك أخيراً، يا جويل. وعليك الآن أن تذعن وتعلن الأمر.

* * *

٥ ـ انكشفت اللعبة

كانت تيفاني، معتادة على الأضواء وعلى التحدث إلى الناس. ونادراً ما كانت تؤخذ بغتة أو يتملكها الارتباك. لكنها، هذه المرة، كانت في حالة ضعف ذهني وجسدي معاً فلم تستطع إخفاء ذلك. كانت ضائعة تماماً حتى أنها لم تدرك ما يحدث. كل ما استطاعت التفكير فيه هو روعة شعورها وهي تستند إلى قوة جويل فيبر عندما استلم زمام الموقف.

ـ مهما كان مفهومك خاطئاً، يا نيريدا...

بدأ يتكلم، ثم هب صائحاً في وجوه المصوّرين الذين لا يزالون يلتقطون الصور.

ـ أبعدوا تلك الآلات وإلا طردتم من اليخت.

فقالت المرأة مؤنبة:

ـ حسناً يا جويل، كان لا بد من تفسير لسلوكك أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة، وقد حصلنا الآن عليه. إن إخفاءك الحقيقة عن الجميع يؤكد أهميتها عندك، لكن علاقتك السرية قد انكشفت. وصورة لك ولخطيبتك هو خبر كبير، ولا يمكنك أن تضن عليّ بهذا السبق الصحفي.

وألقت على تيفاني نظرة ذات معنى:

ـ والآن دعنا نبدأ باسم السيدة.

خطيبة! أخذت هذه الكلمة تجول في ذهن تيفاني حتى كاد رأسها، الذي أصابه الدوار، ينشق للصدمة، فاضطرت لإنكار هذه العلاقة الوهمية مع جويل فيبر.

ـ لا تربطني بالسيد فيبر أي مشاعر غرامية ولن تربطني به أبداً أي علاقة من هذا النوع.

تضايقت لأنه تعرض بسببها لأقاويل كهذه وإن لم تقصد ذلك فقد سببت له الليلة من العذاب أكثر مما يكفي.

كانت المرأة التي تواجههما بالغة الثقة بنفسها وفي أواخر الأربعينات من عمرها، لكنها بالغة الأناقة. وابتسمت لتيفاني بتنازل:

ـ التبرير جاء متأخراً. وأرى أنّ لعبتكما قد انكشفت.

قالت تيفاني بحرارة: «اللعبة، إذا شئت أن تسميها كذلك، هي عمل صرف، وأي تأويل آخر هو مجرد سخافة».

ـ أنت تدهشينني يا «نيريدا».

قال جويل هذا ساخراً، قبل أن يضيف:

ـ ليس من عادتك أن تخطئي. هل لك أن تخبريني عما جعلك تصلين إلى مثل هذا الاستنتاج؟ هل هو، بكل بساطة، غيابي عن الأضواء خلال الأشهر الثلاثة الماضية؟.

ضحكت المرأة بدون أن تهتز ثقتها بنفسها مقدار ذرة. ولاحظت تيفاني أن الكثير من المتفرجين يبتسمون ويتبادلون النظرات الفضولية. فبات الآن من المستحيل أن تتسلل من دون أن يلحظوها.

ـ لن ينفعك التظاهر بالتواضع يا جويل.

قالت المرأة هذا باستمتاع الهرة وهي تلاعب الفأرة:

ـ لقد سبق ولاحظنا عدم اهتمامك، كما لاحظنا ابتعادك عن الحفلة قبل وصول السيدة بالضبط، وحديثها مع حراس الأمن، وتجاوبك، ورغبتك في إبعادها بسرعة للتحدث معها على انفراد، كل هذا من الطبيعي أن يثير فضولنا. وبعد أن سألنا حراس الأمن، أصبح من المنطقي جداً أن نستخلص هذه النتيجة...

وسكتت وقد لمعت عيناها انتصاراً:

ـ كما أن هناك أمر لا يمكن إنكاره، وهو أن السيدة تلبس في إصبع

يدها اليسرى خاتماً رائع الجمال.

وكبحت تيفاني تأوهها لتصرفها الطائش على رصيف الميناء. كان احتفاظها بخاتم «أرماند» تصرفاً غريباً منها، فقد توقعت منه خاتم الخطبة. وأخيراً، وعندما اتضحت لها حقيقة علاقتهما، لبسته علامة على ذكرى مرّة، تذكرها على الدوام بزيف عواطف الرجال.

وألقت على جويل نظرة اعتذار معذبة:

ـ لا أعرف كيف أصلح الأمر، فأنا لم أقصد قط أن أكون مزعجة إلى هذا الحد.

شدّ يده على خصرها، والتمعت عيناه لحظة في عينيها، بنظرة حارة سرعان ما غطاها ستار من الكآبة الباردة، ثم نظر إلى المرأة:

ـ أنت لن تستسلمي، أليس كذلك يا «نيريدا»؟ بل ستناضلين حتى النهاية المرّة.

ـ نعم، حتى النهاية المرّة، الأسابيع والشهور لا تعني لي شيئاً. لقد أمسكت بك أخيراً، وسألاحقك حتى آخر درجة من درجات الكنيسة.

ـ ولكنك، في هذه الحالة، لم تدعي لي خياراً آخر سوى كشف الحقيقة الكاملة، فهي على الأقل، ستوفّر عليك تعب البحث في السكة الخاطئة. لذا سأعلن الحقيقة وإن في غير أوانها.

سرت بين الحاضرين همهمة اهتمام، ولمعت عينا الصحافية، بينما غاصت أصابعه في خصر تيفاني، فتساءلت بقلق عما يمكنه أن يقوله لكي يجعل الصحافية تعفيهما من تطفلها.

ـ لم أشأ هذه الليلة أن يتحوّل الاهتمام عن «جزيرة ليجر». ولكن بما أنه تحوّل إلى اجتماعي بالآنسة جايمس، وهو اجتماع أردناه خاصاً، يسرني أن أعلن أنه حصل بيننا الآن اتفاق بشأن محطتي التلفزيونية. فقد كنا نناقش المشكلة، وقد وافقت الآنسة جايمس على أن تقدم عرضاً يكون بمثابة اختبار. إذا حظي بشعبية بالغة كما نرجو، فإن إدارة المحطة ستدعمها لتنفيذ أي مبادرات أخرى قد تقترحها، ومن ثم تتولى إدارة

المحطة، وهذا كل ما أنا مستعد لقوله الآن.

لم تستطع تيفاني أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة مجفلة عليه. كانت كلماته لا تصدّق! يستحيل أن يكون قد غير رأيه بشأن الفيلم الوثائقي، ولعلها لعبة منه لتحويل اهتمام المخبرة الصحافية عن التجسس على حياتهما واقتفاء آثارهما.

لم تسمح تيفاني لنفسها بأن تتمنى أن يعني حقاً ما قال، ولكن أياً كانت الحقيقة، يفترض بها أخلاقياً أن تدعم قوله. لا يستحق جويل فيبر أن يكون عرضة لاستغلال امرأة. وقررت أن تجاريه في خداعه هذا.

ازداد ضغط الأصابع على خصرها، فرفعت بصرها إليه، ورأت ابتسامة مرتسمة على شفتيه. واشتبكت عيناه السوداوان بعينيها بنظرة آمرة محرقة، فردت عليه بإيماءة مطمئنة.

ـ الآنسة جايمس واثقة تماماً مما يرغبه الجمهور.

وابتسم لمن حوله، وقد أخذتهم الدهشة، ثم تابع قوله:

ـ وإذا فشلت في جذب عدد المشاهدين الذي تتوقعه فستقدم على الانتحار في عرض مثير رائع سيشكل حديث الصحف، مما يساعد على زيادة عدد المشاهدين.

ضحك البعض، وأحست تيفاني بالاهتمام يتناقص بشكل عام. وأنهى جويل ذلك بالالتفات إلى الصحافية قائلاً بسخرية:

ـ وهكذا يمكنك أن تري، يا نيريدا، غلطتك هنا. إذ لا يوجد غرام بيننا، وكما قالت لك الآنسة جايمس، علاقتنا مجرد علاقة عمل لا غير.

صدرت ضحكات مكتومة عن المتفرجين، بينما ألقت عليه نيريدا نظرة شك قارصة:

ـ سأتحفظ على الحكم، يا جويل، فأنا لا أصدقك.

وعادت تنظر إلى تيفاني وتقيّمها مجدّداً، قبل أن تعود بنظرها إليه.

ـ بما أنني أعرفك جيداً، يا جويل، يمكنني أن أرى أن الآنسة جايمس مؤهلة للحب. ولهذا إذا أردت أن نصدقك، قل لنا ما هي

المؤهلات التي تتمتع بها لكي تقوم بما ذكرته لتوّك.

فأجاب ببرودة:

- المبادرة، الجرأة، ورسم المشاريع، يا نيريدا. لقد عملت الآنسة جايمس في الخارج خلال السنوات الأخيرة، وهي بارعة جداً نظراً لميلها إلى التطوير بما يلائم الذوق العام. ربما يكفي القول بأن أخاها هو زاكاري لي جايمس الذي لا يجرؤ أحد على الشك في مدى نجاحه.

ضاقت عينا المرأة، وبدا واضحاً أنها تكره أن تبدو مخطئة خصوصاً أمام الناس.

- ليس من عادتك أن تضع نساءً في مركز صنع القرار في مؤسستك، يا جويل. لم تفعل هذا يوماً طوال حياتك العملية. إنه انقلاب مفاجيء.

- دم جديد، هذا ما أحتاجه وما تحتاجه محطتي التلفزيونية، وسأرقي أي شخص يصلح لذلك. والآن، نرجو المعذرة.

واشتدت الذراع حول تيفاني تبعدها عن نيريدا بحزم. سار بين المدعوين وحيّا بعضهم، وكان على تيفاني أن تؤدي حالاً الدور الذي خصصه لها جويل وإلا انكشفت اللعبة. ولم يكن لديها فكرة عما إذا كانت تمثل الحقيقة أم الكذب. وفي كل الأحوال، هذا أقل ما يمكنها فعله بعدما سبّبت هذا الإحراج لجويل بتمثيلها السابق بالنسبة للخاتم. هذه المرة كانت تيفاني حريصة للغاية، لأنها أدركت أن نيريدا تصوّب عينيها الزرقاوين الساخرتين إليهما، مستعدة لأن تنقض على أي شيء يمكنها أن تضع عليه مخالبها الحادة.

كان من السهل على تيفاني التخلص من الأسئلة الشخصية. فعندما سئلت عن خبرتها السابقة، ابتسمت بغموض ثم أعلنت أنها قامت بسلسلة طويلة من الأعمال الناجحة، وهي تفضل أن تدع النتائج تبرهن جدارتها بدلاً من التباهي بنفسها.

رفضت أن تجيب على الأسئلة المتعلقة بعرضها القادم، مصرة على أن يبقى هذا سراً إلى أن يظهر تفوقه على كل عرض آخر. كما أنها أدركت أن

جويل لا يريدها أن تذكر اسم «هاڤن بي» في هذه الظروف. ومع مرور الوقت زاد اقتناعها بأن هذا كله مجرد كذب لكي يتجنب جويل اقتران اسمه «بهاڤن بي» مما يجعل صلته بقريته هذه مدار تسلية بين الناس.

كان دعم جويل لتمثيلها هذا في منتهى البراعة حيث أبعد الحديث عن أي زلل، مدلياً بتعليقات جعلت قولها أقرب إلى الحقيقة، معاملاً إياها باحترام انعكس على كل من تحدثوا إليهما.

وبغض النظر عن مدى الخداع في هذا الأمر، فقد شعرت تيفاني بمتعة لوجودها إلى جانب جويل ولحاجة الواحد منهما إلى الآخر. كما أنّ نظرات التقدير الحميمة التي كان جويل يرمقها بها بين حين وآخر أثارت في نفسها أملاً ضعيفاً في أنه ما زال بإمكانها إقناعه بأن يغيّر رأيه بشأن «هاڤن بي». ومنحها أيضاً شعوراً جنونياً بأن أحدهما ينتمي إلى الآخر. لكنها حدثت نفسها بأن هذا مجرد وهم سرعان ما يتبدد عندما ينتهي هذا المأزق.

وعندما تنبّهت إلى أنه عليها أن تكون على رصيف الميناء عندما يعود غاريت، وشعرت بأنهما قاما بما يكفي لكي يبعدا نيريدا عن طريقهما، أقلّه هذه الليلة، لمست ذراع جويل وابتسمت معتذرة إزاء نظراته الحادة المستفهمة، وقالت بحزم:

- عليك أن تعذرني، يجب أن أرحل.

- طبعاً.

وافقها برقة، لكنها رأت في عينيه لمعان سخرية مرّة وهو يضيف:

- كرم منك أن تبقي معي طوال هذا الوقت.

وجرها معه من بين الحاضرين بالرقة نفسها: «أرجو أن تعذرونا من فضلكم. يجب أن أرافق الآنسة جايمس إلى سيارتها».

منحتهم تيفاني ابتسامتها الغامضة مرة أخيرة، شاعرة بتصلب وجهها، وكذلك جسدها عندما أمسك جويل بذراعها مخترقاً بها ظلام الليل. ورحبت بانتهاء هذه المهزلة رغم قنوطها وكآبتها.

وصلا إلى رأس الجسر المتحرك المؤدي إلى رصيف الميناء، وارتجفت تيفاني عندما لفح نسيم البحر البارد ذراعيها. فقال لها:

ـ هذه سترتك.

أمسك بالسترة لتلبسها، وحينئذٍ فقط أحست بمقدار توتره، مما زاد من تعاستها وهي تدرك مدى ارتياحه عندما ترحل.

نزلا معاً على الجسر. ومرّا بحارسي الأمن اللذين وقفا جانباً باحترام، واستمعا إلى الأوامر التي راح جويل يلقيها عليهما.

ـ لا تسمحا لأحد بمغادرة اليخت قبل أن أعود. أعني لا أحد على الإطلاق مهما كان السبب...

فأومآ باحترام:

ـ نعم يا سيدي.

لا شك أن جويل فيبر يريد أن يتأكد من ذهابها بأمان، لكن تيفاني كانت تعلم أنها لا تستطيع أن تسمح له بذلك، إذ لن يعجبه على الإطلاق أن يكتشف أن «غاريت ماكوغ» هو الذي أحضرها إلى يخته. كان عليها أن تحتفظ بموعدها مع سفينة الصيد سراً، لذا حالما اجتازا رصيف الميناء، أبطأت في سيرها، علّه يعود إلى يخته قبل أن يصلا إلى الفندق. نظرت إلى ساعتها فأدركت أنه ما زال أمامها نصف ساعة قبل موعدها عند الرصيف البحري، فقالت بأسف:

ـ أقدّر لك سرعة بديهتك التي أخرجتنا من المأزق الذي سببته لك، لكنني أدركت أنّ ما من شيء تغير حقاً. وأرجوك ألا تظن أنني أتوقع منك شيئاً، فأنا أتفهم سبب ما قلته لي.

ألقى عليها نظرة غامضة:

ـ ألا تدركين أنّ علينا أن نتابع سيرنا؟.

توقفت عن السير وقد أزعجتها نبرة صوته العنيفة الخافتة، لكن ضغط يده على ظهرها أعادها إلى الحركة، وهو يقول: «إنهم يراقبوننا».

تملك تيفاني الاضطراب، بالرغم من أنها أطاعت أمره. وبالرغم من

أنها تريد معونة جويل، إلا أن فكرة أن تطيعه بسبب الابتزاز والتهديد بالفضيحة لم تعجبها حيث أن كل ما حدث ذنبها هي. وهمست:

ـ أنا آسفة، ألا تستطيع أن تقول لهم ببساطة إنك غيرت رأيك؟ أو...

فقاطعها: «هل أنت مستعدة للتخلي عن فكرة «هاڤن بي»؟».

ـ لا أستطيع.

ـ إذن، ليس لديك خيار آخر سوى تصوير فيلمك الوثائقي بواسطة محطتي التلفزيونية. وإذا ذهبت لتصويره في مكان آخر، ستلحق بك نيريدا وأنت رأيت كيفية تصرفها. ستتصور أنني كذبت لأن لديّ ما أخفيه. وستنتهي بالذهاب إلى «هاڤن بي» لنبش الأمور... وطريقة تفكيرها....

توتر فكه وكأنه يصرف بأسنانه. ومرة أخرى أدركت تيفاني أنّ الألم الذي عاناه في ماضيه حُفر في أعماقه، وهو لا يريد الكشف عنه. أخذ نفساً سريعاً، ثم قال فجأة:

ـ إذا ذهبت نيريدا إلى «هاڤن بي»، أريدها أن تركز على ما قد يحدث مستقبلاً، لا أن تنبش أموراً تخصني.

وهزت تيفاني رأسها بقنوط وعجز:

ـ لم أقصد أن أسبّب لك هذا صدقني. أنا أعلم أن ذلك ليس...

فقاطعها بإذعان مرّ:

ـ ما حدث قد حدث، ولكني سأكون شاكراً لك إذا حاولت تخفيف أي ضرر قد يحدث مستقبلاً.

ـ طبعاً. يمكنك أن تثق في أنني سأبعد اسمك عن كل ما يتعلّق بهاڤن بي، إذا كان هذا ما تريده.

ـ ابقي فقط الأمور ضمن إطار العمل.

تنهدت تيفاني لتطلق بعضاً من عواطفها المكبوتة. وقالت وقد شعرت بالندم حتى لتوجهها إليه منذ البداية:

ـ أخبرني كيف ستعالج الأمر وأنا سأتبع إرشاداتك حرفياً.

لم يجب على الفور، وشعرت تيفاني بتوتره يحيط بها في موجات خانقة. تخطيا الرصيف واتجها نحو الفندق، حيث كان لا يزال أمامها متسع من الوقت قبل أن يحين موعد لقائها بغاريت. لكن ليس لديها الوقت لحديث طويل مع جويل فيبر، وعليها أن تفترق عنه قبل وصولهما إلى الفندق، وإلا سيكتشف أنها لم تأت بالسيارة وعندئذٍ سيظنها متحالفة مع غاريت ضده. وقالت بسرعة:

ـ يمكنني أن أعطيك رقم هاتف أختي لكي تتصل بي في حال غيرت رأيك.

فقال بحزم:

ـ لا، لا أريد اتصالات أخرى معك، يا تيفاني، ولا بأي شكل. سأعدّ لك كل ما تحتاجينه مع مجلس الإدارة الحالي في المحطة التلفزيونية. وسأسبغ على ذلك صفة رسمية يوم الاثنين، ويمكنك أن تستلمي عملك من هناك، واطلبي ما تحتاجين من أموال. أعدّي فيلمك الوثائقي واختاري الوقت المناسب لبثّه. وعندئذٍ ينتهي الأمر، وسيكون الفيلم ملكك أنت. ويمكنك أن تبيعيه لأي محطة تلفزيونية تريده، فأنا لا أريد أي صلة به بعد ذلك ولا بك أيضاً، كما أنني لا أريد القيام بأي شيء بالنسبة إلى «هاثن بي»، هل هذا مفهوم؟.

ـ نعم، وشكراً.

كان هذا حسماً للمشكلة بالغ السخاء، لكن بدا واضحاً أنّ جويل لا يريد نقاشاً حول ذلك.

توقفت عن السير واستدارت تواجهه، وقد تملكها الحزن لفكرة وداعه بهذا الشكل، لكنها كانت تعلم أن الأمر ليس بيدها.

ـ لست مضطراً لمتابعة السير معي، يا جويل. لم يعد بيننا ما يقال، أليس كذلك؟.

لم يحثها على السير، فقد كانا خارج مجال الرؤية من البخت، كما لم

يتبعهما أحد. الضوء الخافت على طريق الفندق جعل وجهه في الظل، لكن ملامح وجهه المتوترة بدت وكأنها منحوتة من الصوّان. وأحست تيفاني بالألم في صوته وهو يجيب:

ـ لا، لقد فات الأوان على تغيير... أي شيء. لقد أحضرت غاريت، أليس كذلك؟ فقد رأيتك تصلين في سفينة الصيد.

صُدمت تيفاني لسماع ما قاله، وأدركت أنها لن تستطيع خداعه.

ـ نعم، لقد أحضرني غاريت، لكنه اعتقد أنني لن أتمكن من الوصول إليك.

ضحك بخشونة وهو يهز رأسه نفياً:

ـ لكنك وصلت إليّ. لقد نجح، لا بد أنه يخطط لهذا الأمر منذ اللحظة التي فكرت فيها بطلب المساعدة.

ـ لماذا تقول هذا؟.

قالت هذا وهي تتساءل عما إذا كان هذا صحيحاً. هل غاريت هو الذي اقترح الاتصال بجويل فيبر أولاً أم هي؟ وما سبب هذا كله؟ وعادت تسأل جويل:

ـ ماذا تعني؟

ألحت عليه لكنه تجاهل سؤالها وأجاب باختصار:

ـ لا شأن لك بهذا، ودعي عنك هذا الأمر. تابعي ما تريدين القيام به من أجل أختك وابنها ومن أجلك أنت. والآن، اذهبي!.

ـ ألن أراك أبداً بعد الآن؟.

ـ لا. أبداً!.

وقفت تحدق فيه، عاجزة عن الابتعاد عنه رغم علمها بأن هذا ما يريده، وما أرادته هي أيضاً منذ لحظة. إنما الآن، وقد حانت ساعة الفراق، بدا الأمر خطأً مروّعاً. لقد شعرت منذ اللحظة الأولى من اجتماعها به أنه مقدّر لهما أن يتلاقيا في مكان ما، ووقت ما، ولكن ليس هذه الليلة بكل تأكيد. وسألته مترددة مفصحة عن مشاعرها:

ـ أتظن هذا صواباً؟.

ـ نعم!

أحست برقة خفيفة في صوته، وقال بسخرية ناعمة:

ـ لا أظن أن لقاءنا مرة أخرى سيفيد أياً منا. كما أنه من الغريب أنني لا أريدك أن تتألمي بسببي.

ورفع يده يلامس وجنتها بتحية مختصرة:

ـ وداعاً، يا تيفاني جايمس.

ثم استدار مبتعداً عنها، عائداً إلى يخته... عائداً إلى عالمه اللامع الموحش... عائداً إلى حاجز من السخرية وقنوط داخلي لا يدركه أحد.

ولم تستطع تيفاني كبح الدموع التي ترقرقت في عينيها. أرادت أن تحطم ذلك الحاجز، أن تمحو ذلك القنوط لكنها لا تستطيع أن تقع في الخطأ نفسه مرتين وتلقي بنفسها في النار مجدداً.

مسحت دموعها واحتك خاتم «أرماند» بحاجبيها. مدت يدها وأخذت تحدق في الخاتم الذي ساهم في تعاسة حظها، وأخذت تفكر وهي تخلعه من إصبعها أن اللآلىء تدل على الدموع. ولكن الرجال لبسوا مخادعين، جميعهم. وهي لن تدع عقلها يتحيّز بشكل غير منصف لمجرد حادثة واحدة سيئة صادفتها في حياتها، مهما سببت لها تلك الحادثة من آلام. ومن الآن فصاعداً لن تتذكر إلاّ الأوقات الحسنة التي أمضتها مع أرماند. ثم أعادت الخاتم إلى إصبعها. أمامها مستقبل طويل.

ثم أدركت فجأة أن جويل فيبر قد اتخذ الليلة قرارين. أولهما مشروع الارتقاء بهالفن بي الذي سيسير قُدُماً، وقد يبشر بالخير. فربما إذا تمكنت من النجاح، ستثير اهتمام أحد الممولين فيستثمر أمواله. على أيّ حال، ستسر الآن أختها كارول وابنها آلان، عندما يعلمان أن المستقبل في طريق النجاح.

كما أن غاريت العجوز سيفكر في كرم جويل، لأنها لن تخبره شيئاً آخر عن اجتماعهما. وإذا ما استغلها الصياد العجوز لغرض أثيم في

نفسه، فهي لن ترضي فضوله. جويل فيبر يريد أن يبقى الماضي في الماضي، وهي مدينة له بذلك على الأقل.

عندما توجهت إلى نهاية الرصيف البحري لتنتظر مركب غاريت، عادت تفكر في المستقبل. وشعرت برغبة ملحة في مباشرة عملها فوراً بينما هناك عشرات الأمور التي عليها أن تنظمها قبل عرض الفيلم الوثائقي... عليها أن تجعل المجموعة كلها تعمل معاً على الفور.

وحيث أنها مُنحت كامل الحرية في إعداد أي نوع تريده من الأفلام الوثائقية مدعومة بكل إمكانيات المحطة، فكرت في أن بإمكانها إخراج عرض هام خاص يجعل المشاهدين يطالبون بالمزيد. وماذا سيفعل جويل فيبر في هذا الشأن؟ ففي النهاية من الممكن جداً أن يؤدي أي لقاء بينهما إلى لقاء آخر.

* * *

٦ ـ في الاتحاد القوة

أخذت فكرة أن عناد الطبيعة البشرية ميزة رائعة تراود تيفاني طوال الأسابيع القليلة التي تلت. وأثار خبر استعداد جويل لدعم مشروع السياحة إلى حد تسديد تكاليف الفيلم الوثائقي كلها، ردات فعل جمة خصوصاً بين كبار السن في هاڤن بي.

ـ هذا ما كان ينبغي أن يفعله. فقد تأخر طويلاً في ردّ بعض ما أخذ.

هذا ما قاله غاريت متمتماً بغموض. وعندما سألته تيفاني عما يعني ذلك، اكتفى الصياد العجوز بهز رأسه والتزام الصمت. وعلى أيّ حال، أبدى بعض سكان البلدة الدهشة، وحتى الحيرة، لأن جويل فيبر فكّر في منح أي شيء لهاڤن بي، فلطالما رفض إبداء أي تعاطف مع موطنه القديم. ذلك أن طريقة تربية روبن لحفيده جويل وتسخيره في العمل، لم تترك لهذا الأخير أي سبب يجعله يحب قرينه. ثم... هناك العاصفة...

وأخذت الرؤوس تهتز بصمت ذي معنى... أما الجواب الوحيد الذي علّلوا به تصرف جويل هذا فهو أن مشروع السياحة جيد وجويل فيبر مستعد للقيام بأي شيء في سبيل المال. وكان لهذا الاستنتاج أهمية كبيرة فأهالي القرية المسنّون الذين نظروا إلى مشروع تيفاني السياحي بتشاؤم، بدأوا يذعنون آملين في المساهمة إيجابياً في المشروع. وفي كافة الأحوال، كان جويل فيبر يعرف ما يفعل. فلطالما أثبت أنه رجل أعمال محنّك. وهو ما كان ليشارك في هذا المشروع، لولا تأكده من أنه يعود عليه بالفائدة، لذا لا بد أنها فكرة جيدة.

وحيث أن الإيمان بالهدف هو نصف المعركة، لم تحاول تيفاني تصحيح هذه الفكرة. فلكي ينجح أي مشروع، يحتاج إلى تكاتف الجميع، وبما أنها مؤمنة كل الإيمان به، لم تر سبباً يجعلها تكشف عن فكرة جويل المجحفة وعدم استحسانه لهذا المشروع.

اجتاحت الثقة رجال الأعمال الذين وظفوا أموالهم في المشروع، فتوقفوا عن التحدث عن المجازفات وابتدأوا في تخمين الأرباح. وأخذت الفكرة تتلو الفكرة. وخصصت أرض للتخييم، وبنيت التسهيلات والمرافق وأعاد أصحاب الحوانيت النظر في المسألة وزادوا كمية بضائعهم.

لم يكن من الصعب بث الحماسة في صدور الجيل الجديد، فمستقبلهم رهن بهذا المشروع وليس لديهم ما يخسرونه. وفضلاً عن الربح الذي قد يجنونه، أثارهم حسّن المغامرة وبعث فيهم الحماسة، فبدوا مستعدين لقبول التحدي. إلى ذلك، أصلحت سفن الصيد وأعيد طلاؤها وصقلها حتى أصبحت متألقة، ووُضعت اللافتات على الطرق لتسهيل الأمور على السائحين، كما زينت الشوارع بالأعلام. وشيئاً فشيئاً أخذت بلدة «هاڤن بي» تتغير... أقلّه ظاهرياً.

سيعمل ألان كوكيل حجز يقوم بسائر المهمات. وفي البداية، سيستلم عمله بمساعدة تيفاني، ولكن عندما ينهي سنته الدراسية، سيتولّى زمام الأمور ويديرها بمفرده بمساعدة أمه التي ستكون السكرتيرة وأمينة الصندوق. استأجرت له تيفاني مكتباً صغيراً في الشارع الرئيسي كان مهجوراً منذ مدة طويلة وبحاجة إلى إصلاح كبير. لذا جاء زملاء ألان في المدرسة لمساعدته فحفروا الجدران ودهنوها وقام أحد تلامذة الفنون برسم لوحات جدرانية للحيتان.

والآن، اتخذ قلق كارول على مستقبل «ألان» بُعداً آخر. كانت كارول دوّامة من النشاط والمرح. وعندما جاءت إلى البلدة، راح الأهالي ينظرون إليها بشك وعدم ثقة نظراً لأصلها الڤييتنامي، وطريقة حياتها الغريبة. غير أنها سرعان ما اكتسبت حبهم ببساطتها وعدم تكلفها، وقيامها

بالأعمال الشاقة لتوفير حياة كريمة لها ولابنها ألان. وطبعاً، لم يكن من شأن الحياة التي عاشتها الأم وابنها، بعزيمة، لتذليل العقبات التي تعترضهما إلا أن أكسبتهما الاحترام والتقدير. ونسي أهل البلدة منذ مدة طويلة أنهما أجنبيان، واعتبراهما ببساطة شخصين عاشا حياة شاقة...

منذ عدة سنوات، عملت كارول كمساعدة في مدرسة «هاڤن بي». وقد تمكنت بسهولة من إقناع المدير والموظفين بوضع برنامج لتعزيز الوعي الاجتماعي. ولقي هذا الأخير نجاحاً كبيراً لدرجة أن تلامذة المدرسة الصغار راحوا يشكلّون مجموعات لتنظيف القرية وأخذوا يدهنون الأسيجة ويجزّون أعشاب المروج، وينظفون الحدائق، ويجمعون القمامة، وسرعان ما تولد شعور بالغ بالكبرياء الجماعيه.

والآن، بعد أن حركت تيفاني «هاڤن بي» وأخرجتها من لامبالاتها، حان دورها لتبدأ بالتنفيذ. وكان الفيلم الوثائقي المفتاح للعملية كلّها. فحوّلت فكرتها الأولية التي استغرقت نصف ساعة إلى برنامج يستغرق ساعة كاملة وقررت عرضه مساء الأحد بين نشرة الأخبار والساعة الكوميدية الشعبية.

كما أنها أعدّت دعاية من دقيقتين ونصف لتروّج للفيلم الوثائقي وتثير اهتمام المشاهدين. وودّت تيفاني لو تقوم بالمزيد، ولكن هناك حد لما يسمح به جوبل فيبر، وهي شعرت بأنها وصلت إلى ذلك الحد.

استغرقت كتابة النص أكثر مما توقعت حتى جاء حسب رغبتها. وإذ شعرت بالخوف يتملكها، إتصلت بأخيها زاكاري لي، ولم تستطع أن تسيطر على خفقات قلبها عندما أصبح موعد القرار وشيكاً. فما من إنسان لا تتملكه الشكوك بما سيحدث. وتساءلت تيفاني عما إذا كانت في عقلها الكامل حين أقدمت على هذه المغامرة. ولكن لم يكن لديها وقت لتصل بهذه الأفكار إلى نتيجة منطقية حاسمة.

وساندها زاكاري لي في عملها، وقدم لها بضع نصائح. كان سيرسل لها فرقة من المصورين... لكنّه غير رأيه، وقرّر أن يحضر بنفسه مع فرقة

المصورين. إنه فعلاً وقت يتعاون فيه أفراد الأسرة.

شعرت تيفاني بموجة دافئة من الاطمئنان تغمرها، فزاكاري لي سيحرص على إنجاح الفيلم، لأنه يشعر بعطف خاص حيال كارول وألان. فقد ساعد في تهريبهما من الڤييتنام، بعد أن تملكه الذعر للمأزق الذي وقعا فيه بحيث لم يعد لديه صبر على الإجراءات الحكومية الطويلة. وكان في ذلك الحين مراسلاً تلفزيونياً يغطي أخبار الحرب، لكن الأمور المرعبة التي رآها لم تخفف من عطفه العميق أو رقته الفياضة. وأخذت تيفاني تفكر مزهوة بأن أخاها رجل بكل ما للكلمة من معنى، ليس جسدياً فقط، رغم أن كل من يقف بجانبه يبدو قزماً، وإنما رجل في قلبه ونبله.

حددا نهار الأربعاء لبدء التصوير. ودعت تيفاني الله ألا تمطر، إذ كانت تريد يوم صحو رائعاً تظهر فيه «هاڤن بي» في أجمل حلّتها. لكن القدر لم يكن لطيفاً إلى هذا الحد. فقد هبطت درجة الحرارة بسرعة، ليلة الثلاثاء. وكانت الأرصاد الجوية قد أعلنت عن منخفض جويّ يجتاز المحيط الهندي، فستكون الرياح معتدلة إلى ناشطة ثم يهطل المطر في اليوم التالي بغزارة. وكان هذا آخر ما تريده تيفاني، لذا اتصلت بزاكاري لتخبره بأن يرجيء الأمر. فضحك على الهاتف:

ـ أنت مخطئة هذه المرة، يا أختي. لدينا هنا حدث مثير، وهذا ما سنعرضه، ثقي بي. إن المشروع سينجح، يمكنني دوماً أن ألتقط صوراً جيدة من أجل نهاية جيدة للقصة. ما لدينا هنا هو الطبيعة... الطبيعة في أجلى معانيها ومظاهرها. و«هاڤن بي» محمية نسبياً، فدعينا نجعل الناس يرون الفارق... مخلوقات البحر الضخمة هذه في حقيقة جوهرها. كما أنه لو أتى السائحون يا تيفاني، لن يجدوا الطقس مشمساً كل يوم، أريهم الحقيقة.

تنهدت تيفاني وألقت النص من يدها، ثم اتصلت بغاريت وأكّدت له أنهم سيبدأون العمل غداً مهما كانت حالة الطقس...

وعندما وصلت فرقة زاكاري لي في الصباح التالي، بدا وكأن بلدة «هاڤن بي» أعلنت العطلة العامة. إذ لم يشأ أحد أن يفوت التفرج على تصوير الفيلم الوثائقي، حتى أن هطول المطر لم يمنعهم من التجمّع حول الميناء. في الواقع، اجتذب الجوّ العاصف إلى الخليج من الحيتان أكثر من العادة، وازداد الحماس عندما وضع المصورون أجهزتهم كلّها على سفينة غاريت وحلّقت الهليكوبتر التي أقلّتهم لتأخذ الصور الجوية.

وطبعاً، رافقهم «ألان» على سفينة الصيد. وكانت تيفاني قد دربته على مقابلة واحدة، ودربت غاريت على أخرى. لكن الحيتان و«هاڤن بي» كانت نجوم الفيلم الحقيقية، فأخذت لها صور وهي تغوص في موجة جارفة فلا يبدو منها سوى حدباتها. كان المنظر مهيباً، خصوصاً عندما أخذ رذاذ المياه يتناثر في كل اتجاه على بعد أمتار قليلة من سفينة الصيد. وأنهت تيفاني التصوير بمقابلة مرتجلة مع أحد المصورين الذي بدا متحمساً للغاية وهو يردد:

- رائع، رائع.. شيء لا يصدّق، لقد صورت أفلاماً في سائر أنحاء العالم. مما جعلني أظن أنه لم يبقَ شيء لم أره أو أعلم به. لكنني لم أر شيئاً كهذا. أن أكون قريباً إلى هذا الحد من مثل هذه المخلوقات الرائعة... ذلك يجعل الإنسان يشعر... إنه شيء لا يمكن شرحه... رائع... منعش.

وهز رأسه، لكن ملامح وجهه عبرّت عن كل شيء:

- يجب ألاّ يفوّت أحد هذا المنظر....

كان القسم الذي صوّروه ذلك النهار وحشياً رائعاً. أخذت تيفاني تراقب عمالقة البحر هذه وهي تتلاطم متخبطة مع الأمواج، غافلة عن قوة الطبيعة... وشعرت بانتعاش بالغ! كانت واثقة من أنه لا يمكن للناظر إلى هذا المشهد إلاّ أن يشعر بالبهجة، وعندما عادوا إلى الشاطىء، كانوا جميعاً مبللين بالرغم من معاطفهم الواقية ويرتجفون من البردوالجوع. وكانت كارول قد أعدت لهم الشاي والقهوة، وطعاماً يكفي لإطعام

جيش صغير.

كانت تيفاني مرهقة للغاية، ولم تعرف كيف استطاع زاكاري لي أن يجعل كل هؤلاء الناس يضحّون بأوقاتهم وجهودهم من دون أي مقابل. في الأسبوع التالي عاد الجميع إلى التصوير مرة أخرى. كانت الأمور هادئة تماماً هذه المرة، وقد تبدد الإحساس بالإثارة والمشاركة، وأصبح الأمر مجرد عمل مهني. وأخيراً، أجريت مقابلة مع ألان وكارول لتركيز الموضوع على الإنسان. ولم يتبقّ سوى تولّي نشر الإعلانات بشكل يغري الناس ويشوّقهم لزيارة هاڤن بي.

كاد جسم كارول الصغير يضيع في عناق زاكاري الضخم وهو يودّعها. وفكرت تيفاني أنه لا يمكن لشقيقين أن يكونا مختلفين في المظهر إلى هذا الحد. لكن الرباط بينهما موجود... ومتين كأي رباط دم... وهو رباط المحبة. رفع ألان بصره إلى الرجل الضخم ذي الشعر الكستنائي اللامع، والعينين العسليتين الرقيقتين، والتمعت عيناه السوداوان بما يشبه العبادة الخالصة. مهما فعل زاكاري لي، سيبقى بطلاً على الدوام بالنسبة إلى ألان.

عادت تيفاني إلى سيدني مع أخيها وقامت باستشارات بالنسبة إلى الإنتاج النهائي. وحيث أن جويل فيبر تنازل عن كل حقوقه في هذا المجال، قرر زاكاري لي أن يعرض الفيلم الوثائقي على محطته التلفزيونية الخاصة بعد أسبوع من عرضه على محطة جويل على أن يتم التفاوض لاحقاً مع بقية المحطات في استراليا والولايات المتحدة واليابان. وعقدت تيفاني اتفاقات خاصة مع وكالات السفر الكبرى، مشددة عليهم أن يشجعوا هذا المشروع.

أملت تيفاني ألاّ تكون قد أغفلت شيئاً، إذ كان مطلوباً منها الدقة البالغة والاهتمام بكل التفاصيل. أمّا الخطوة التالية فكانت تسليط الضوء على العرض نفسه. إدارة محطة جويل الخاصة كانت متعاونة جداً معها، بحجة أن فيلمها الوثائقي هو العرض الذي سيزيد عدد المشاهدين. ولم

تشعرتيفاني بأي تأنيب ضمير لاستغلالها هذه الرواية.

خُصّص وقت للإعلان لا يتعدى نصف دقيقة على أن يُعرض كل مساء طوال الأسبوع. ووضعت الإعلانات في الصحف والمجلات حول عرض الفيلم الوثائقي. ولسبب ما، لم تسأل تيفاني أحداً كيف يحدث هذا، أو من يدفع تكاليفه.

وأخيراً، حلّ يوم الأحد المنتظر. وعندما دخلت تيفاني بسيارتها إلى المحطة حيث يختبرون ردة فعل المشاهدين... في حال كان هناك مشاهدون، تمنّت لو أن أجهزة التلفزيون كلها، تفتح على هذا العرض كما هي الحال الآن في هاڤن بي. كان القلق في القرية في أوجه، ما جعلها تشعر بالتوتر.

وكان التوتر في مكان العرض على أشدّه، ولم تعرف تيفاني ما إذا كان ذلك توقعاً للنجاح أم الفشل. فهي، رغم كل شيء، دخيلة، لا تستطيع أن تطمئن العاملين إلى أنها لن تؤثر على حياتهم بأي شكل، حتى وإن أحرز الفيلم الوثائقي نجاحاً كبيراً.

برد توتر أعصاب تيفاني حالما ابتدأ الفيلم، كان العرض جيداً، بل أكثر من جيد بحسب رأيها. وأحسّت أن من بدأ بمشاهدة الفيلم لن يغيّر المحطة، وتمنّت أن يتفرج جويل عليه هو أيضاً. فربما سيساعد هذا في إبعاد شبح الماضي عنه ويجعله يغير نظرته إلى الأمور.

لم يكن عليها أن تنتظر طويلاً لترى ردة فعل المشاهدين، إذ حالما انتهى الفيلم الوثائقي انهالت المكالمات الهاتفية والأسئلة عن رقم هاتف وكالة الحجز في هاڤن بي، حتى أن المحطة اضطرت لعرضه على شاشة التلفزيون بين حين وآخر طوال برامج المساء التالية.

جاءت مكالمة لتيفاني، وانتفض قلبها لفكرة أنه قد يكون جويل فيبر. وتبدّلت خيبة أملها بابتسامة وهي تسمع صوت أخيها يهنئها:

ـ كنت رائعة يا أختاه.

ـ أنت متحيّز، فالمهارة مهارتك.

وضحكت.

ـ لكنها فكرتك أنت يا تيفاني. الأفكار في مهنتنا، هي الكربات الحمراء في حياتنا، إنها تحمل الأوكسجين المحيي.

تنهدت عندما أعادت كلمة (المحيي) جويل إلى ذهنها. لعل من الغباء ألاّ ترغب في إنهاء أي علاقة بينهما. وقالت لزاكاري لي:

ـ حسناً، كل ما يمكننا فعله الآن هو أن ننتظر لنرى إن كان سينجح.

ـ هذا صحيح يا أختاه. فلننتظر ونرى.

أجاب برقة بالغة أفصحت عن مشاعره. الهدوء، اللطف، الصفاء، كان مدهشاً للغاية أن يجتمع كل هذا في مثل هذا الرجل الضخم.

وقالت له بحرارة: «أشكرك لانصالك».

ـ يسرّني ذلك يا تيفاني. أعلميني إذا كان هناك أي شيء آخر يمكنني المساعدة فيه.

وكانت تيفاني تعلم أنه يعني ما يقول، فالأسرة لا تألو جهداً للمساعدة. وشعرت بينبوع يتدفق عطفاً على أولئك الذين لا أسرة لهم مثل جويل فيبر، وغاريت العجوز. من الواضح أن فقدان الأسرة جعلهما ينطويان على نفسيهما.

إذا كان النجاح يقاس بعدد المكالمات التي تلقتها وكالة الحجز في اليوم التالي، فيمكن القول إن الفيلم الوثائقي نجح نجاحاً ساحقاً. أمّا الزائرون فيوشكون على اكتساح هاڤن بي، إذ لم يتوقف الهاتف لحظة عن الرنين وتملك تيفاني الارتياح لانتهاء كل هذه الاستعدادات بنجاح. فقد حُجزت أرض التخييم بكاملها للعطلة الأسبوعية القادمة، إذ لم تتسع أماكن السكن في بيوت الضيوف القليلة. كما لزم الأمر زيادة رحلات سفن الصيد لتفي بالمطلوب وبدأ سكان هاڤن بي يعملون ويجدّون لتأمين متطلبات هذه الوفود من السائحين.

أخذ المتفرجون يصلون أثناء الأسبوع، وكانت القرية مستعدة لهم.

لكن العطلة الأسبوعية الأولى تحوّلت إلى ما يشبه مستشفى المجانين. أخذت الجموع تتدفق نهار السبت، وفي البداية خاب أمل السياح اليوميين الذين لم يحجزوا مسبقاً في رحلات سفن الصيد، لكنهم بدوا راضين بتسلق الجرف الشاهق الذي يطلّ على النشاطات كلها. بإمكانهم، على الأقل، أن يروا الحيتان من بعيد.

وصل فريق الأخبار من المحطة التلفزيونية، وظهرت هاڤن بي على شاشة التلفزيون مرة أخرى تلك الليلة، فضلاً عن مقتطفات من الفيلم الوثائقي المثير. ويوم الأحد ازدادت الجموع الزائرة، ومن بينها الصحافية «نيريدا بيلامي» التي أحرجت تيفاني في وكالة الحجز كما سبق وأحرجت جويل فيبر على اليخت. إذ سألتها:

ـ ما هو مجال خبرتك، يا آنسة جايمس، الإعلام أم السياحة؟.

ـ الإثنان.

أجابت تيفاني بذلك باسمة قدر الإمكان. وردت المرأة عليها بابتسامة ماكرة:

ـ وهذا يجعلك رفيقة ملائمة تماماً لجويل فيبر. أنت تسبقينه إلى هنا، أليس كذلك؟ إنه يختبر المياه قبل أن يغطس في مشروع سياحي جديد. إنها لعبة مزدوجة أليس كذلك؟.

سخرية الموقف جعلت صوت تيفاني جافاً تماماً:

ـ أنا لا أسمي هذا لعبة. بالنسبة إليّ، هذا عمل جاد. أما بالنسبة إلى نوايا فيبر المستقبلية، فعليك أن تسأليه بنفسك.

ضاقت عينا نيريدا الحادتان وقالت:

ـ بما أنه انعزل عن الآخرين منذ حفلة اليخت، فأنت تدركين جيداً أنه يستحيل عليّ أن أطرح عليه أيّ سؤال. ولكن لا يمكنه أن يبقى في قلعته الحصينة تلك إلى الأبد، ولهذا لا تظني أن بإمكانك أن تستمري في خداعي، يا آنسة جايمس. عاجلاً أم آجلاً، ستعودان إلى بعضكما البعض، وسأكون أنا في المرصاد.

ـ لماذا؟

ألقت تيفاني عليها هذا السؤال بفضول، إذ كانت تريد حقاً أن تعلم ما الذي يجعل هذه المرأة تتعقبها.

ـ لأنني، يا عزيزتي الآنسة جايمس، لا أصدّق أياً منكما، وأريد أن أبرهن أنني على صواب.

هذه هي العقدة إذن، كما أدركت تيفاني فجأة. كانت المرأة تكره أن تبدو مخطئة، خصوصاً أمام الناس. وتساءلت تيفاني عن عدد المرات التي أثبت فيها جويل فيبر خطأها. لا بدّ أن هذه الصحافية تكن له شيئاً من الضغينة، وهي لن تستسلم قبل أن تثأر منه.

تمنّت تيفاني لو أن موقف جويل إزاء «هاڤن بي» مختلف عن موقف نيريدا منه. ولو أنه يغير رأيه في موضوع تقديم العون لمشروع السياحة هذا بالذات، وفي مواضيع أخرى. لكنه لن يفعل ذلك ما لم يحصل ما يدفعه إلى مراجعة قراره. لقد قال إنه لن يكون هناك أي اتصال بينهما. ومع ذلك، كان في صوته نبرة الأسف تلك عندما تحدّث قراره. لا يمكن أن يرغب حقاً في أن يتركه الجميع وشأنه، لا أحد يجب أن يكون وحيداً في هذه الحياة. (قلعته الحصينة تلك...).

لماذا ابتعد عن العالم منذ قابلها؟ بقي هذا السؤال يشغل تيفاني مدة طويلة. من الواضح أن جويل فيبر بحاجة إلى من يعيده إلى الجنس البشري، سواء شاء ذلك أم أبى، حتى أنها ستتجاهل سخريته من عمل الخير إذا تمكنت من مساعدته.

* * *

بعد أسبوعين، وجدت تيفاني نفسها في وضع محرج. لقد أصبحت «هاڤن بي» بسرعة أكثر الأماكن اجتذاباً للسياح، مما جعل حركة المراكب في المنطقة ناشطة. كما أن القرية راحت تعاني من مثل هذه الحركة السريعة التي جعلت كل شخص يتملكه مزيج من الإرهاق والانتعاش. وأخيراً بدت على شفتي مدير المصرف ابتسامة لم يرها أحد طوال السنوات

العشرين التي أمضاها في البلدة. واتخذت شهرة هاڤن بي بعداً دولياً، فقد اتصلت وكالة سفريات لتعلن أن طائرة «بوينغ ٧٤٧» ستقلّ وفوداً هائلة من اليابان لرؤية الحيتان.

ابتهجت تيفاني لفكرة تنظيم رحلة جوية في إطار مشروعها السياحي للتفرج على الحيتان، وحبس ذلك منها الأنفاس.

ـ لا يمكننا أن نستقبلهم.

قال ألان هذا واليأس مرسوم على وجهه ذي الملامح الآسيوية والأوروبية. وبالكاد كان يستوعب ما يخبرها به. سار على ساقيه الاصطناعيتين، وكأنه لم يسبق له أن سيطر عليهما من قبل، ثم انهار على كرسي، وقد انحنت كتفاه بخيبة أمل وقنوط. فقالت تيفاني آمرة:

ـ بل احجز لهم.

وكانت عيناه بركتين داكنتين من الهزيمة:

ـ لم يبق لدينا مراكب.

ـ إحجز.

ـ لا يمكننا ذلك، الناس الذين حجزنا لهم قادمون، وسوف يجتازون آلاف الأميال.

ـ إحجز.

فهز رأسه:

ـ لا أظنك تعنين ذلك، يا خالتي.

ـ بل أعنيه.

وعندما شعر أخيراً بالتصميم في صوتها، سألها:

ـ ما الذي ستفعلينه؟.

ـ سأجد طريقة.

فاستلم الحجز، ورأت الانزعاج في تصرفاته، والخوف من ألاّ ينتهي الأمر على خير. لم يكن مقتنعاً بأن تيفاني قادرة على ايجاد حل، وكان واثقاً من أن ما تقوم به أحمق تماماً، وتساءلت تيفاني إن كان هذا صحيحاً.

وأشارت الأيام القليلة التي تلت، إلى أنها وعدت بأكثر مما يمكنها الوفاء به، فقد حاولوا، عبثاً، الاستجداء، الاستعارة، الاستئجار، الشراء. بينما هناك خمسمئة سائح ياباني سيصلون لرؤية الحيتان.

وشيئاً فشيئاً، تبلوّرت الفكرة في ذهنها. بقي إمامها إمكانية واحدة، وكبحت تيفاني قشعريرة ذعر لتفكيرها الطائش هذا، ولكن لم يكن أمامها خيار آخر... خيار يمكنها التفكير فيه على الأقل. فإذا كان يعيش معزولاً في بيته في «جزيرة ليجر»، فمعنى هذا أنه لا يستعمل يخته، ولا شك أن اليخت «ليبرتي» في حوض السفن الآن، مهمل تماماً. ولا بد لطاقم اليخت من أن يقوم بعمل ليستحق ما يتقاضاه من أجر، ولن يخسر جويل فيبر شيئاً إن أعارها إياه هذه المرة فقط.

وعلى أيّ حال، أصبح لديها برهان كافٍ يجعله يتراجع عمّا قاله عن هاڤن بي، ففيلمها الوثائقي لاقى نجاحاً كبيراً لم تشهده المحطة من قبل. كما أنه لا يستطيع أن ينكر أن قرية صيد السمك العتيقة قد تلقت حقنة منعشة وأن نبوءته عن الكارثة لم تكن صحيحة. ذلك أن هاڤن بي ليست على وشك الانهيار والموت وعلى جويل فيبر أن يواجه الواقع.

لكن هذه المرة، وقبل أن تواجهه مجدداً، عليها أن تحصل على بعض الحقائق من غاريت العجوز، لقد حصل شيء ما منذ عشرين عاماً. وهو شيء لم يمت بعد، شيء أعظم من العاصفة أثّر في الاثنين معاً وبشكل عميق. لا يمكنها أن تذهب مرة أخرى إلى جويل فيبر مغمضة العينين.

* * *

٧ ـ الزمن لا يمحو الكراهية

قالت تيفاني للصياد العجوز: «أنا ذاهبة إلى جويل فيبر لأستعير منه يخته».

أخذ غاريت ماكوغ يحدّق فيها بملامح جامدة، وهو يعي تماماً المشكلة التي يواجهونها. ثم سألها:

ـ أتريدينني أن آخذك إليه؟

ـ لا، فأنت ستخرج مع السياح، ولهذا لن يكون لديك الوقت. سأضطر إلى الذهاب وحدي.

قالت كلامها هذا وقد شعرت بأن مساعدة غاريت في المرة الأولى كانت وراء تصميم جويل على عدم معاودة الاتصال بها، وهي لن ترتكب تلك الغلطة مرتين. أضافت بحزم:

ـ أريدك أن تخبرني عما حدث يوم العاصفة.

فأجاب بعنف وفظاظة: «أصبح ذلك من الماضي».

ـ بل تذكر... كبار السن كلهم يتذكرون، أريد أن أعرف لماذا لا يريدون الحديث عن ذلك؟ أنا بحاجة إلى أن أعلم، يا غاريت. هذا يقف في طريق تقدمي الآن. إنني أعلم ذلك منذ لقائي ذاك مع جويل فيبر... كما تعلم أنت أيضاً.

بدا التردد والحيرة على وجهه، وتجنبت عيناه عينيها، وهو يجيب بخشونة:

ـ لا أحد يريد أن يستعيد تلك الذكريات، لقد مات كثيرون تلك الليلة، ماتوا من دون طائل، ماتوا من غير ضرورة. لقد أخبرتهم بما سيحدث، وقد حدث... حدث.

أخذ يكرر ذلك عابساً، فسألته بسرعة: «ما الذي حدث بالضبط؟ أنا أعلم أنه جرت محاولات إنقاذ».

أومأ قائلاً وعيناه تنضحان سخرية:

ـ نعم، ولكن من دون أمل في النجاح على الإطلاق. ما كان ينبغي لأحد أن يخرج في تلك العاصفة. فقد بثت الإذاعات ما يكفي من الإنذارات. وعلمنا في ما بعد أن بحّارة اليخت الذي أرسل نداء الاستغاثة كانوا من الهواة وقد خرجوا من دون التقيّد بالتعليمات. حمقى عنيدون! لا يستحقون الإنقاذ فقد عرضوا حياة الآخرين للخطر.

ـ وهل ماتوا؟

فأجاب بقسوة: «نعم، وكانوا يستحقون ذلك. لقد غرق اليخت قبل أن تقترب منه سفينة الصيد الأولى، ثم غرقت إحدى السفن. فذهب روبين فيبر لإنقاذها. وكان هذا جنوناً، ولكن عندما يصمم روبين على أمر، لا يستطيع أحد أن يمنعه. لقد كان مجنوناً. مجنوناً... كلهم كانوا كذلك. وكلهم ماتوا».

وتوترت شفتاه، وتوهجت عيناه الفولاذيتان بشعور قوي: «كلهم ماتوا ما عداه».

فسألته وقد انقبض قلبها: «جويل؟».

فأجاب العجوز بشيء من المرارة:

ـ نعم، حالفه الحظ. وكان الوحيد الذي نجا.

سألته بنعومة: «وهل تكرهه لهذا السبب، يا غاريت؟».

فألقى عليها نظرة باردة قاسية كئيبة، عديمة الحيوية، ثم قال أخيراً بصوت فاتر بليد:

ـ الزمن يمحو الكراهية.

وأدركت أنه لن يتابع الموضوع. ومع ذلك، شعرت بأن الصورة توضحت لها قليلاً الآن. وتذكرت انطباعها عن جويل فيبر حين تعرفت إليه وهو أنه ينجو من كل كارثة... من دون أن يشعره ذلك بأي فرح.

وتساءلت تيفاني عن شعور الناجي الوحيد عندما يموت الآخرون. أن يشعر بالآخرين ينظرون إليه وربما يتمنون لو أن شخصاً آخر أعز عليهم هو الناجي. أتراه حظه الذي منعه من الغرق؟ أم تراه كان الأقوى، والأذكى فنجا وقضى الجميع؟ هل جعله الفلاحون يشعر بالذنب لأنه لم يمت؟ وهل هذا هو السبب الذي جعل الناس يرفضون التحدث عن ذلك؟ وهل هذا هو السبب الذي يجعل جويل فيبر يسرّ لرؤية هاتن بي تموت؟.

وأخذت تيفاني تفكر في سرّها أن ذلك حصل منذ عشرين عاماً، وكما قال غاريت (الزمن يمحو الكراهية). لكنها ليست واثقة من أن العجوز قد نطق بالحقيقة في ما يتعلق بتلك الحادثة.

وعندما لم تجد تيفاني أمامها حلاً آخر، بدأت بتنفيذ ما اعتزمته، أي العثور على جويل فيبر. فبعد أن قرر قطع كل اتصال بينهما، كان من العبث الاتصال به هاتفياً، لذا قررت أن تكرر فعلتها وتحاول أن تتكلم معه بأي طريقة ممكنة، حتى وإن لم يكن مرغوباً فيها.

استعارت زروق غاريت الصغير، ثم انطلقت في الصباح إلى «جزيرة ليجر». إذا كان جويل مختبئاً حقاً في بيته الحصين، كما قالت نيريدا، فالبحر سيشكّل مرة أخرى الوسيلة المثلى للوصول إليه. وعندما وصلت تيفاني إلى مقره الخاص، كانت حرارة الشمس في أوجها. وكان المنزل قائماً عند خليج صغير في الناحية الشمالية من الجزيرة، ومحاطاً بسياج مرتفع. مرّت بالقرب من مراكب عدة راسية في مرفأ صغير، لكنهم تجاهلوها كما تجاهلتهم هي أيضاً. أرست زورقها في جهة يحجبها زورق سريع مربوط إلى رصيف جويل. لم يأت أحد ليمنعها، وأدركت أن أحداً لم يلحظ وصولها، فركضت بخفة على الرصيف، وهي تفكر في خطوتها

القادمة. كانت عيناها مسمّرتين على الطريق الذي يمتد من الرصيف إلى البيت، لكنها رأت الرجل في الوقت المناسب قبل أن تقدم على ما خططت له، فوقفت على الفور.

كان مستلقياً على الرمال يستمتع بحمام شمس على ما يبدو، وبدا واضحاً أنه ليس رجل أمن. لعله نائم إذ كان مستلقياً على بطنه، ورأسه متحوّل عنها.

وقفت لحظة تنظر إليه، ولكن من دون فائدة. من الواضح أنه مصمم على أن تلوّح الشمس جسده. بدا مسترخياً تماماً، وفي وضع كهذا، لا بدّ أن المواجهة بينهما ستحرجهما.

كانت تفكر في أفضل وسيلة لتجاوزه، عندما خطر لها أن هذا الرجل هو جويل فيبر نفسه. الشعر الأسود، الطول، الجسد الضامر... إنه إذن، الرجل الذي تبحث عنه، ازداد تخمينها يقيناً مع تقدّمها، تنهدت بعمق، ثم سارت خلسة على الرمال المبتلة، مصمّمة على ألاّ توقظه إلا بعد أن تتأكد من هويته.

كان هو بذاته، بملامح وجهه المميّزة بصلابتها ووقفت جامدة دقائق عدة تتفحصه، متسائلة عن أفضل طريقة تعالج بها الوضع. كان قلبها يخفق سريعاً، فقد أثار وجوده الاضطراب فيها بعد أن تأكدت من هويته. وطبعاً، لم تكن تتوقع أن يحدث هذا. بدا وسيماً للغاية، بعضلاته القوية المسترخية تحت لمعان بشرته البرونزية. كان عليها، بأي شكل، أن تفكّر في شيء يهمّه لئلا يطردها. وعلى أي حال، يتطلب الأمر معالجة دقيقة.

جلست على الرمل على بعد أقدام منه، بحيث يتمكن من رؤيتها حالما يفتح عينيه. وعندما شعرت ببعض الهدوء التقطت حصاة ورشقته بها على ظهره. عندما رشقته بالحصاة الثالثة التي أصابت وجنته، عبس متضايقاً، وأخيراً فتح عينيه.

قالت بنعومة محاولة استرعاء انتباهه من دون أن تجعله يجفل:

ـ مرحباً، مرة أخرى.

أخذ يحدق فيها بعينين جامدتين لحظات عدة قبل أن تصبح نظراته حادة بعد أن عرفها. توتر وجهه، ثم عاد فاسترخى بابتسامة ساخرة:

ـ أنت مليئة بالمفاجآت، يا آنسة جايمس.

أخذ قلب تيفاني يخفق، على الأقل، لم يُبدِ عداءً نحوها. وقالت تعتذر:

ـ آسفة لأنني أيقظتك، لكنني أودّ التحدث إليك.

فقال ساخراً وهو يستند إلى مرفقيه:

ـ حسناً، بخصوص ماذا الآن؟

وأخذ يتأملها، كان شعرها الطويل العسلي اللون معقوداً فوق رأسها، وقميصها الأبيض الفضفاض مربوطاً على خصرها، أمّا سروالها الأبيض القصير فيظهر ساقيها الطويلتين اللتين لوحّتهما الشمس. قال بسخرية جافة:

ـ لقد أصبح الأمر عادة لديك.

سلخت نظراتها عن عضلات ذراعيه وكتفيه وظهره، ثم قالت:

ـ هل تحتاج إلى منشفة؟ يمكنني أن أحضرها لك إذا كنت لطيفاً معي.

ضحك والمكر يتراقص في عينيه هزلاً.

لم تكن حرارة الشمس سبب تصبب العرق من جبين تيفاني، بل لأن هذه المقابلة لا تسير حسب تخطيطها. في الواقع، ساورها شعور بأنها ستنحرف عن مسارها. ولكنه على الأقل، لم يكن غاضباً منها.

إبتسمت وهي تجاهد للسيطرة على نفسها:

ـ جئت وحدي هذه المرة، ونزلت على رصيفك. وأنا الآن أنقذك من حروق سيئة للغاية. ألا تعلم أن من الخطر النوم على الشاطىء؟

ـ أظنني أحب أتعرض للخطر.

ولمعت عيناه فجأة بمشاعر رأتها في مقابلتهما الأولى. وتابع متمهلاً:

ـ ما أكثر ما عانيت من أرق الليالي، وها أنت الآن هنا.

مدّ يده بسرعة وأمسك بمعصمها. وقبل أن تدرك تيفاني نيته، فقدت توازنها واستلقت على الرمال. سمّرها في مكانها وأخذت عيناه تجولان على وجهها وتتأملانه، بينما كانت هي تجاهد لالتقاط أنفاسها.

ـ هذا ليس إنصافاً.

ـ ومن يهتم؟ لقد أدركتني في وقت غير ملائم. ولكنني ببساطة غيّرت قواعد اللعبة، وإن كنت تظنين أنك ربحت فأنت مخطئة.

أخذ قلبها يخفق وقالت بصوت مخنوق:

ـ لا، يا جويل، ولم أشأ أن أزعجك، لكنك جعلت وصولي إليك صعباً للغاية. ولم أتوقع... لم أعرف ماذا أفعل.

صدر عنه صوت استنكار زاد تشوشها، ثم مدّ يده وراح يداعب وجهها.

ـ ولماذا لا يجدر بي أن أضمك؟ لقد استغلّيتني لتبلغي غاياتك، يا تيفاني. أنت تفعلين ما تريدين، تجتاحين عزلتي، وأحلامي.

أحلامه؟ أتراه فكر فيها بقدر ما فكّرت فيه؟ وأي نوع من الأحلام تلك؟ جميلة؟ كوابيس؟ هواجس من ذكريات عاصفة «هاڤن بي»؟ ربما لم يكن من الصواب أن تعود إليه مهما كان السبب.

ثم تبدّدت أفكارها كلّها حين أحاطها بذراعيه القويتين، وشعرت بالخطر. إذا ضمّها كما فعل في المرة الماضية، بتلك الطريقة العنيفة المحمومة... وشهقت وقد أمالت رأسها إلى جانب:

ـ إياك... أرجوك يا جويل... لا! أريد أن أطلب منك خدمة، لا يمكن أن تنفّذ بهذا الشكل.

وكان صوتها ينبض باليأس، فقال بخشونة:

ـ فلتكن هذه إذن خدمة لي.

فنظرت إليه غير مصدقة: «أنت لا تعني ذلك، يا جويل».

ـ ربما لا.

وتحوّلت سخريته المرة شيئاً فشيئاً إلى سأم غامض. أغمض عينيه أمام

التوسّل المذعور في عينيها وهز رأسه قائلاً:

ـ ما كان لك أن تعودي، يا تيفاني. فقد أثرت في نفسي الحاجة، وهذا ما أريد أن أنساه. اذهبي الآن... إذهبي ما دمت آمنة مني.

وبينما كانت هذه الكلمات تصل إلى عقلها المضطرب، تركها واستدار مبتعداً عنها. وجلست تيفاني تصارع مشاعرها، لقد قال بوضوح إنه ما كان لها أن تأتي. ومع ذلك لم تستطع الوقوف والرحيل، إذ كانت ترتجف كالورقة في مهب الريح، وتشعر برغبة في البقاء بجانبه. التقطت حصى صغيرة ورمته بها قائلة بصوت متوسل:

ـ أريد أن أتحدث إليك، ألا يمكنك أن تتكلم معي فقط؟

دار صراع حاد بين عينيه وعينيها، استحال سخرية عابسة. وعندما نهض، رأت تيفاني بنيته أشدّ وقعاً في النفس من أيّ رجل آخر.

وقف لحظات جامداً تماماً وقد بدا عليه أنه يراقب مركباً راسياً خلف الرصيف البحري، أو لعله يتساءل عما إذا سيبقى معها أو يذهب.

وأخيراً، جلس، لكنه لم يقرّ بوجودها سواء بالحركة أم بالحديث، ومال إلى الأمام مستنداً إلى ركبتيه المطويتين، ووجهه متحوّل نحو البحر يتأمله بنوع من الكآبة. كان في ذلك الصمت الذي لفهما معاً نوع من الحميمية، فشعر أحدهما بالآخر بالرغم من المسافة الفاصلة بينهما.

وسألها أخيراً من دون أن يدير رأسه نحوها: «لماذا لم تخبريني بقصة كارول وألان كاملة؟».

وأدركت بسرور بالغ أنه رأى الفيلم الوثائقي، فأجابت برقة:

ـ لم تكن مهتماً بذلك، يا جويل.

مال إلى الأمام ليأخذ حفنة من الرمال، ثم راح يراقبها وهي تتسرب ببطء من بين أصابعه. وتساءلت تيفاني عما إذا أثارت اهتمامه، وعما إذا كان يشعر بأي عطف نحو أختها بالتبني وابن أختها. لقد كانا، مثله من الناجين، ولكن بخلافه، تركت الكارثة فيهما أثراً مروّعاً لا يمكن أن يُمحى.

ـ ماذا حدث لساقيّ «ألان»؟.

ولم يفصح عن أفكاره أو مشاعره. لكن صوته، على الأقل، لم يحمل أي أثر لتلك السخرية القاسية.

ـ أصيب بلغم أرضي في فييتنام، حين كان في الثانية من عمره. حملته كارول إلى مستشفى الجيش حيث كان أخي معيّناً بشكل مؤقت. كان والد «ألان» جندياً استرالياً، ولكن ما من أحد أرادهما، لا الفييتناميون ولا الاستراليون، كما أنّ أهل كارول قُتلوا جميعاً في غارة ضربت قريتهم. لقد كانت الحياة قاسية عليهما، أقلّه قبل أن يتدخل أخي زاكاري لي، ويهتم بهما أمي وأبي. لقد غيرت كارول اسمها إلى اسم إنكليزي، لأنّ مأساة الحرب جعلتها تغيّر أشياء كثيرة.

أومأ برأسه ثم أخذ حفنة ثانية من الرمال. وانتظرت تيفاني وقد أنبأها حدسها أن الوقت غير مناسب لطلب أيّ شيء. فقد كان التواصل بينهما بالغ الدقة سريع العطب، وغاية في الأهمية. وتخلل السؤال التالي خيط من الفضول:

ـ وكيف أصبحا من أعضاء أسرتك؟.

ـ عندما أصبح «ألان» في حالة تسمح له بالسفر، دفع «زاكاري لي» مبلغاً ضخماً ليرسلهما على متن إحدى السفن. وعندما وصلا إلى «داروين» طلب والداي تبنّيهما، كانا بحاجة إلى... كثير من العناية. وكنا نحن مستعدين تماماً لذلك.

ثم سكتت إذ لم تكن واثقة من تأثير كلامها على جويل. لكن حاجتها إلى كسب تفهمه اضطرتها إلى المتابعة، فتنهدت بعمق، ثم أوضحت قائلة:

ـ وفي النهاية، حصل «ألان» على ساقين اصطناعيتين، وتوجّب استبدالهما مع نموّه وتقدمه في السن. ورغبت كارول في الاستقرار في قرية صيد السمك هذه، فهي أشبه بالموطن التي نشأت فيه قبل الحرب، ولكن قبل كل شيء، أصرت على عدم معاملة «ألان» كمعوق. كان

مهماً، بالنسبة إليها أن يعيش ابنها حياة طبيعية، ذلك أسهل في بلدة صغيرة منه في المدينة. لكن المشكلة ظهرت فيما بعد. أيّ نوع من المستقبل سيحظى به «الآن» في هاڤن بي؟ لهذا، شعرنا جميعاً بأن علينا بذل قصارى جهدنا في هذا الشأن.

هز رأسه ببطء. وسكتت تيفاني لحظة تنتظر تعليقه لكنه لم ينبس ببنت شفة وتمنت لو أنها لم تسترسل في الموضوع إلى هذا الحد. وبعد وقت بدا لها دهراً، عاد يستلقي على الرمال، وينظر إليها.

لم تشأ أن تواجه عينيه، إلا بعد أن يتكلم ويفصح عن الأفكار التي تجول في رأسه. مد يده يلامس يدها اليمنى:

ـ لقد غيّرت مكان خاتمك.

وأخذ يحرك اللؤلؤة متفحصاً.

ـ نعم، كان عليّ القيام بذلك منذ فترة طويلة، وأنا آسفة لأنه سبب لك الإزعاج.

أرسلت ملامساته وخزاً في جسدها، وتساءلت عما إذا كان يجدر بها قبول هذه المداعبة. رفع بصره فاشتبكت عيناهما:

ـ هل كنت مخطوبة؟.

لم يكن لديها ما تخفيه من تلك الناحية، فأجابت بصراحة:

ـ لا، لقد لبسته في يدي اليسرى كتذكار. إنها فترة قصيرة من التعاسة كان عليّ أن أنساها بشكل أسرع مما فعلت. حين قُدم لي الخاتم، كنت أظن أنه يعني لي الكثير.

فقال بسخرية: «لكنه كان طريقاً مسدوداً؟».

فقالت: «شيء من هذا القبيل».

أومأ برأسه وعاد ينظر إلى الخاتم، ثم أبعد أصابعه على مضض. وبقيت تيفاني جامدة، لكنها أسفت لتوقفه عن ملامساته الرقيقة.

أخذ يعبث بصدفة صغيرة على الرمال، ثم رفع بصره إليها ووجهه خالٍ من أي تعبير. قال فجأة:

ـ أخبريني إذن عن الخدمة التي تريدينها مني!.

ـ لا شيء يؤذيك. صدقني أرجوك. أريد أن أستعير يختك ليوم واحد، هذا كل ما أريده.

قالت هذا ضارعة برقة بالغة، فالتوت شفتاه هازلاً، وقال:

ـ يوم واحد لا يكفي لرحلة ممتعة، ما الذي يدور في خاطرك؟.

أوضحت له تيفاني مسألة السياح اليابانيين بلهفة:

ـ لقد جربت كل الطرق، يا جويل. وإذا اقترحت عليّ حلاً آخر، سأحاول القيام به. ولكن لا بد أنك ترى مدى أهمية عدم رفضهم.

أومأ برأسه، وطيف ابتسامة لا يزال مرتسماً على ثغره:

ـ أنا الملجأ الأخير إذن.

ـ تقريباً، فكرت في أنك إذا لم تكن تستعمل اليخت... سندفع لك أجرة الاستعارة إذا شئت. المبلغ الذي تطلبه.

ـ لا أريد شيئاً من «هاڤن بي»، خصوصاً أموالهم. أخبريني فقط أي يوم تريدين اليخت.

غمرها الأمل في أنه يقصد بسؤاله هذا قبول طلبها وليس الرفض لأن هذا اليوم بالذات يتعارض مع خطط أخرى وضعها.

ـ يوم الأحد القادم يا جويل. عند الساعة العاشرة صباحاً، وهو موعد وصول الحافلات.

ـ سيكون عندك في الوقت المناسب.

ثم ابتسم ساخراً إزاء تنهدها بارتياح وأضاف:

ـ لا يمكنك إدارة مشروع سياحي على الأمل، يا تيفاني. يُفترض بك تغطيته من جوانبه كلّها.

فأجابت بسرعة:

ـ إن تنظيمنا يتحسن مع الوقت. لكن الوضع تأزم بالنسبة لهذا الأمر بالذات. هذا كرم بالغ منك، يا جويل، وأنا شاكرة لك جداً معونتك هذه، وإذا كان هناك ما يمكنني القيام به لأجلك....

تلاشى صوتها عند رؤية عينيه الساخرتين وهو يقول ببطء:

ـ أنا أعلم أنك لا تعنين ذلك.

ـ بل أعنيه، ولكن ليس...

وتلاشى صوتها مرة أخرى.

ـ إنسي ذلك.

قال هذا بحدة وكأنه شعر فجأة بالضجر من نفسه.

أشاح بنظره عنها وأخذ يرسم على الرمل عابثاً، بينما جاهدت هي لاستعادة سيطرتها على نفسها. ثم رفع بصره إليها قائلاً:

ـ لقد استخفيت بك. ولكن الفيلم الوثائقي الذي حضّرته كان ناجحاً في كل نواحيه.

ارتياحها لتغيير الموضوع امتزج بسرور بالغ لقوله هذا، وقالت:

ـ (زاكاري لي) كان قوة الدفع، فالتصوير أثناء الجوّ العاصف فكرته هو.

اعترفت بهذا لأنها لم تستطع أن تستأثر بمديح جويل. فقال بابتسامة غريبة:

ـ ألم تقومي أنت بالمقابلات؟.

ـ كنت محظوظة، كنت في المكان المناسب والوقت المناسب.

فقال ببطء:

ـ هذا مؤكد. كنت محظوظة لدرجة أنك أنجحت المشروع كلّه.

ـ شيء من هذا القبيل.

وابتسمت لتعليقه الهزلي، وسألها بفضول:

ـ كيف أصبح زاكاري لي أخاك؟

ـ منذ سنوات عدة، كان والدي في «نيو أورليانز» في الولايات المتحدة. حيث كان زاكاري بارعاً في الشطرنج، وقد استغله بعض عديمي الضمير وأرغموه على الاحتيال. كانوا يعنفونه ويشتمونه إذا لم يؤدّ دوره جيداً. كان في السابعة من عمره فقط، ثم...

وأدركت تيفاني فجأة أنها لم تتطرق قط إلى هذا الموضوع خارج نطاق العائلة. فنظرت إلى جويل بتضرع:

ـ ما كان لي أن أخبرك بذلك. إنه أمر خاص جداً بالنسبة لزاكاري لي.

ألقى عليها نظرة ملؤها الحزن:

ـ أتفهم ذلك جيداً. فهناك أمور لا يريد الرجل أن يعرفها أحد سواه.

صدقته بسرعة، فقد كان يتكلم من كل قلبه. وتمنت تيفاني بلهفة أن يكشف لها عن جرحه الذي لم يلتئم قط. في مطلق الأحوال، بدا واضحاً أنه لا ينوي ذلك، وابتسم لها وقد استرخت ملامحه:

ـ وكيف تبنياك؟ من أي بلد أنت؟.

ضحكت وقد سرّها اهتمامه بها:

ـ لقد وجدوني في سلة في «فيجي». طفلة متروكة.

ـ ألا يزعجك هذا؟.

ـ ولماذا يزعجني؟ أنا الآن أنتمي إلى أعظم أسرة في العالم.

توتر وجهه وهو يعبس مستفهماً:

ـ ألا تتساءلين عمّن يكون والداك؟.

ـ نعم طبعاً. ولكن هذا لا يهمني في الحقيقة، الجنس البشري بأجمعه أسرة واحدة، إذا أنت لم تفكر في ذلك.

فقال ساخراً:

ـ لا أظنني أهتم بالتفكير في ذلك، ما هو عدد أخوتك وأخواتك؟.

ـ أحد عشر فرد فقط، لكنهم مختلفو الأجناس.

فقال بجفاء:

ـ لا بد أن والديك كانا مشغولين جداً.

ـ لقد اعتدنا على رعاية بعضنا بعضاً، ولكل منا واجباته المنزلية. شجع أبوانا طموحنا، وعلمانا التعاون والتعاضد والإنشغال ليس شيئاً

www.elromancia.com

سيئاً.

ـ لا.

قال هذا وهو يبتسم باستحسان زاد من جاذبيته، ثم أضاف:

ـ ليس شيئاً سيئاً على الإطلاق، يبدو أنها أسرة جيدة لينضمّ إليها المرء.

فأجابت بحماسة: «بل هي الأفضل».

حدّق إليها بحدة، فشعرت برغبته في أن يكون فرداً من هذه العائلة، وخشيته من ألاّ يجد مكاناً له، فقالت بلهفة:

ـ يمكنك أن تنتمي إليها... إذا شئت يا جويل.

ضحك بخشونة وقد عادت سخريته بشكل كاسح، مخفية تلك الرغبة، وقال ببطء:

ـ ربما كان ذلك ممكناً منذ أعوام، أمّا الآن فقد فات الأوان. وعدا عن ذلك، هنالك مشكلة أخرى أو اثنتان يجب حلهما أولاً.

ـ مثل ماذا؟

فأشار بيده نحو البحر:

ـ أحد خدم «نيريدا» المستأجرين هناك في المركب يحمل آلة تصوير بعدسات مقرّبة. وغداً ستكونين على الصفحة الأولى لإحدى الصحف تحت عنوان عريض مثل (موعد سرّي على شاطىء البحر).

ـ آه، لا.

وتأوهت تيفاني بذعر لأن تصرفاتها منحت تلك المرأة دفعاً، وأعطتها مادة لأخبارها القذرة.

فأجابها جويل باشمئزاز: «آه، بلى».

نظرت إليه تلتمس المغفرة، وتقول:

ـ أقسم أنني لم أقصد أن يحدث هذا.

فابتسم ساخراً:

ـ لو كنت أعلم أنك قادمة، لما تمددت هنا بهذا الشكل. لقد فعلت

هذا لأظهر لهم عدم مبالاتي بتجسسهم، وإذا بي أستيقظ فأجدك بجانبي. ويؤسفني أنني نسيت أمر ذلك المصوّر حتى وقفت ورأيت المركب مرة أخرى.

أدركت تيفاني على الفور أنه يتخذ في هذه اللحظة قراراً حاسماً فقد تطفلت مرتين على حياته، وجعلها ذلك تشعر بأنها فارغة جوفاء، أتراه كان يستمع إليها حين تحدّثت عن كارول و«ألان»؟ طبعاً ليس بذلك الانتباه الكامل الذي تصورته.

لكنه وافق على أن تستعير اليخت!

أترى كان ذلك كرماً في طبعه، أم مناسباً لمشروع آخر في ذهنه؟

وهزت رأسها باضطراب وإحباط. ولاحظت أن تعليقاته الساخرة تخفف عنها فلم يعجبها ذلك. كل ما فيه يؤثر عليها للغاية وإلى حد بعيد، لكن عليها أن تتشبث بكرامتها. وسألته باكتئاب:

ـ هل يقلقك أن ينشروا عنك كل تلك الأكاذيب؟

ـ عدا عن الشعور بالاضطهاد، ليس فعلياً.

أجاب وهو يرمقها بنظرة ترقب وانتظار وتقييم ثم تابع يقول:

ـ لا أدري ماذا سيكون شعورك عندما يصورونك مع «ألان» ليظهروا مدى الشبه...

فتوترت ملامحها وقاطعته: «لن يجرؤوا...»

فقاطعها: «إنهم يفعلون أيّ شيء لكي يبيعوا».

ـ ولكن... هذه حقارة!

ـ هذا صحيح.

وبدا عليه عدم القلق، مما جعل تيفاني تشتبه في أنه وجد طريقة يعالج بها هذه المشكلة، فسألته: «ما الذي ستفعله بهذا الشأن؟».

ـ فكرت في أمور عدة أثناء حديثنا.

ـ مثل ماذا؟.

فلم يجب على الفور. ولاحظت فجأة أن ملامحه تصلّبت واكتست

بتوتر بالغ فذكّرها مرة أخرى بحيوان شرس ينظر إلى فريسته. وكانت عيناه السوداوان مركزتين على عينيها بحدة، عندما قال:

- عندما يتزوج المرء، تتلاشى إثارة الناس وتلذذهم بمثل هذه الأخبار.

وسكت برهة ثم هز كتفيه متابعاً:

- ولهذا، يمكننا أن نتزوج.

ارتعش قلب تيفاني بشكل غريب. وفي اللحظة التالية، أنبأها حدسها بأن كلامه فخ مهلك ينصبه لها، فقالت بحدة وغضب:

- كن جاداً!

فرفع حاجبه متسائلاً بسخرية:

- معظم النساء كن ليقفزن فرحاً لما أعرضه عليك.

فقالت بازدراء:

- لا أصدقك، لأن معظم النساء يردن أن يحبّهن الرجل الذي سيتزوجنه، كنت لتستخف بي إن قفزت فرحاً لعرضك هذا.

- ولكن فكّري في الفوائد.

فلمعت عيناها احتقاراً:

- كفى، يا جويل. أنت بعيد جداً عن الحل!.

تنهد، ولاح على وجهه تعبير حزين، لعله الأسف، قبل أن يسترخي مذعناً للأمر الواقع. وتبدد الترقب والعنف من عينيه، ثم قال بلهجة حاسمة لم تترك للاحتجاج مجالاً:

- ما دامت فكرة الزواج بي لم تعجبك، سأعيّنك مديرة محطتي التلفزيونية إنما بصفة صورية. فإذا لم ترتفع نسبة المشاهدين خلال شهر، صرفتُك من العمل، ثم أبيع المحطة، وبهذا ينتهي كل شيء. ويمكننا، نحن الاثنين، أن نبدأ مرة أخرى بصفحة بيضاء. خدمة تجاه خدمة، يا تيفاني. لقد حصلت على اليخت، وأنا أحبط مسعى نيريدا كما سبق وفعلت مراراً وتكراراً.

لم يعجب ذلك تيفاني، فمساعدة جويل لتضليل نيريدا لليلة واحدة ليس كقيامها بذلك لشهر كامل. يبدو أنّ جويل فيبر ينوي نفيها من حياته. وشعرت، بشكل ما، بأنها فشلت، فتملكتها التعاسة، إذ لم يكن من المفترض أن ينتهي الأمر بينهما بهذا الشكل. لقد اجتهدت لكي تصل إليه، لكن الزواج منه مستحيل.

كان اليخت هو الأهم، وهو ما جاءت لأجله، فإذا لم توافق على خطته، لن تحصل على المركب، وقد تحوّل نيريدا هذا الاجتماع إلى أمر خطير للغاية. وهذا لا يعني أن محطته التلفزيونية تهمها، وإذا كان جويل ينوي أن يبيعها، فوجودها فيها كمديرة بالإسم لن يعني لها مثقال ذرة. ولكن يبدو أنه ليس أمامها أي خيار آخر. وقالت موافقة:

- لا بأس. إنها صفقة بيننا.

نظر إليها متفحصاً، وكأنه غير واثق مما تفكر فيه، أو ربما متسائلاً عما إذا بإمكانه أن يثق بها. ثم قال بأسف غير متوقع:

- هذه الطريقة أفضل، ومعك حق، فأنا سأكون زوجاً كريماً سواء لك أو لأيّ امرأة أخرى.

وهبّ واقفاً ثم مد يده إليها ليساعدها على النهوض، متابعاً كلامه:

- سأتصل بالمحطة وأعلن لهم الأمر، ثم أتناقش مع نيريدا وأفسر لها الصور. سأرسل إليك السيارة نهار الاثنين. وستصلين إلى المحطة بكل المظاهر التي تليق بمركزك، وأتوقع منك أن تؤدي دورك بالسلوك الذي عرفته منك أثناء تعاملي معك.

سألته محاولة أن تتجاهل حرارة يده فوق يدها: «وما هو ذلك السلوك؟».

- الفخامة والجرأة.

وارتسمت السخرية في عينيه، وهي تقف أمامه ثابتة شامخة الرأس ثم أضاف:

- يتملكني الفضول لأعلم ماذا كنت ستفعلين لو أنني رفضت أن

أعيرك اليخت، وكان هذا ممكناً، كما تعلمين.

فابتسمت بأسف:

ـ آخر ملجأ لي كان القوات البحرية.

فسألها غير مصدق: «القوات البحرية؟».

ـ لقد ساعدوني كثيراً بإرسالهم دورية لحماية الحيتان، ولن يشكّل خمسمئة سائح ياباني خائبو الأمل دعاية جيدة للسياحة في هذه البلاد. كنت لأرفع الأمر إلى الأميرال نفسه، كما سبق وفعلت من قبل. لا أظنه سيعطيني حاملة طائرات لكنني كنت سأحصل على سفينة سريعة، أو مدمّرة على الأقل.

فهز رأسه:

ـ ما يخيفني هو أنهم قد يعطونك المدمرة. أعصابك باردة، يا تيفاني جايمس.

ـ أفضّل أن أعتبر ذلك جرأة.

ـ بل أعصاباً باردة، وتفاؤلاً أعمى تقريباً. أنت تعبثين بالخطر وكأنه غير موجود، بينما هو محدق بك، يا تيفاني.

وبدت على ملامحه مشاعر جياشة، وأخفض عينيه إلى يدها التي يمسك بها: «يجب ألاّ تكوني بهذه الثقة».

وأشار بيده إلى الرصيف البحري، مضيفاً:

ـ من الأفضل أن أرافقك حتى المركب.

وانطلق بخطوات سريعة وكأنه يتشوق ليتخلص منها، فكان عليها أن تسرع لتجاريه في السير. أبقى الحديث في دائرة العمل إلى أن ألقى إليها بحبل المرساة ولم يبق أمامها سوى قيادة المركب، ونظرت إليه مترددة:

ـ هل سأراك مرة أخرى، يا جويل؟

ـ ليس إذا استطعت تمالك نفسي.

قال هذا بلهجة تهكمية، مشدّداً على الحروف، ثم عاد يقول جاداً:

ـ انتبهي إلى نفسك يا تيفاني.

والغريب أن تيفاني أحست أنه يهتم بها بالرغم عنه مما سبب لها ضيقاً بالغاً. أدارت المحرك، مدركة أن عدسة آلة التصوير موجهة نحوهما، وانطلقت بالزورق وهي تلوّح لجويل بيدها، ثم استدارت حول شبه الجزيرة إلى أن غابت عن نظر ذلك الرجل الذي لا يرغب في رؤيتها مرة أخرى. وتسنّى لها أثناء رحلة العودة إلى هاڤن بي، أن تتأمل في لقائهما. كان جويل فيبر رجلاً يحب الدعابة، وأدركت أنه منجذب إليها بقدر انجذابها نحوه. لقد ذكرته بأشياء يريد أن ينساها، ولسبب ما شعرت بأن هذه الذكريات المؤلمة لها علاقة بالعاصفة أو بهاڤن بي. لعله يريد أن ينسى كيف كان حينذاك، ولهذا لا ينفك يقول إن الأوان قد فات، لأن حياته تغيّرت كثيراً. أو لعل ما حدث في العاصفة غيّره.

تساءلت عما سيفعله إن أدارت محطة التلفزيون بطريقة ترفع نسبة المشاهدين. عند ذلك لن يكون لديه سبب ليصرفها من العمل. وفي ظروف كهذه، ربما، نعم ربما، تزداد رغبته في التعامل معها بشكل دائم.

* * *

٨ ـ لن أستسلم أنا الرابح

كانت الساعة التاسعة من صباح الأحد عندما وصل يخت جويل المتألق الأبيض إلى هافن بي، حيث وقف السائحون وسكان القرية عند المرفأ يتفرجون عليه. وقد بعث خبر تقدمة جويل فيبر يخته لمواجهة هذه الحالة الطارئة، موجة من الارتياح والبهجة في القرية. وها هو ذا يصل في الوقت المناسب يشق المياه متجهاً نحوهم.

كانت التعليقات الماكرة تسري في الأنحاء. ولم يعد ثمة شك في أن جويل فيبر يريد أن يستثمر أموالاً في مشروع هافن بي السياحي. فما الذي يدفعه للحرص على عدم تعثر الأمور غير ذلك؟.

وجدت تيفاني هذا الموقف مثيراً للضيق، ومن الخطأ أن تعتمد على مساندة جويل فيبر. ومع ذلك، اقتنع الناس بأن إعلان شركته عن نيتها في الاستثمار مسألة وقت وحسب. وعندما قالت إنها ستكون المديرة الجديدة لمحطته التلفزيونية، تأزمت الأمور أكثر، إذ أجمع الكلّ على أنها وجويل فيبر على علاقة حميمة.

لا بدّ أن القصة التي ظهرت في الصحف تركت هذا التأثير! ومهما قال جويل لنيريدا، لم يوقفها عند حدها تماماً. أشارت القصة إلى تعاون تيفاني وجويل في إخراج فيلم هافن بي الوثائقي وتخمينات كثيرة عن المشروع السياحي الذي أتى في أثره. ولكن لم يذكر أحد أيّ علاقة غرامية بينهما، بل إن علاقتهما لا تتعدى نطاق العمل. والصورة الوحيدة التي

نشرت هي تلك التي أخذت لهما على اليخت أثناء الحفلة، أمّا الصورة التي أخذت لهما على الشاطىء فقد أُحرقت... ولكن بأي ثمن؟ وتمنت تيفاني أن ينتهي كل شيء على خير.

ـ يا له من مركب رائع.

صرخ ألان بذلك ببهجة عارمة عندما رسا اليخت قرب الرصيف الممتد في المياه العميقة. ولمعت عيناه الكبيرتان السوداوان وهو ينظر إلى تيفاني مضيفاً:

ـ أليس رائعاً إن استطعنا استعماله على الدوام؟

ـ آلان، إنها حالة استثنائية ولا يمكننا أن نرجو الحصول عليه مرة أخرى. لذا انسَ هذه الفكرة، ودعنا نهتم بالعمل الذي بين أيدينا.

صعدا إلى سطح اليخت حالما وضعوا الجسر المتحرك بينه وبين الرصيف. فعدا عن دورهما كلجنة استقبال صغيرة، كان على ألان أن يسلّم برناجاً مطبوعاً إلى القبطان، وعلى تيفاني أن تتأكد من أن الطاقم يعرف المطلوب منه. رافقهما رجلان بكل احترام إلى الجزء المخصص للضباط. لكن تيفاني لم تلاحظ التقنيات الهائلة التي مكّنت اليخت من الصمود أمام العوامل الطبيعية لأن عينيها شخصتا إلى رجل هناك وبقيتا مسمرتين عليه فيما صرف هو الرجلين. آخر ما توقّعته هو أن يكون قبطان اليخت جويل فيبر بذاته. قابلها بعينين يتراقص فيهما السخرية والهزل:

ـ ألا يمكنك أن تبقي بعيدة عني يا تيفاني؟.

كان يرتدي اللون الأبيض من رأسه حتى أخمص قدميه... نظراً لدوره كقبطان لليخت... لكن صورته على البحر، برجولته المهيبة انطبعت في ذهنها بشكل لا يمحى. وقبل أن تدرك ما تقوم به، وراحت تتأمله، مما أضاف مزيداً من الاضطراب إلى التشوّش الذي تملكها لرؤيته. وبشكل ما، استطاعت أن تحرك لسانها الملتصق بأعلى حلقها، لكنها بالكاد تفوهت ببعض الكلمات غير المفهومة.

ـ ظننت... أنك قلت... لقد جعلتني أظن أنك لن تعود إلى هنا

أبداً.

تحوّل الهزل في عينيه إلى ظلمة فاترة أحبطت أي محاولة لقراءة أفكاره. ثم قال:

ـ أنا هنا، لكن هذا لا يعني أنني عدت فعلاً.

ـ لماذا جئت إذن؟.

سألته هذا متمنية لو أن ما قاله يخالف الحقيقة، وأنه هو من لم يستطع الابتعاد عنها.

وهز كتفيه قائلاً:

ـ بالنسبة لهذه المهمة بالذات، حسناً، أنا معتاد على الحيتان أكثر من غيري، وأعرف مياه هذا الخليج عن ظهر قلب. لذا استلمت القيادة هذا اليوم من القبطان. أنت تريدين معاملة جيدة لسياحك اليابانيين، وعدتك بذلك، وأنا أفي بوعودي.

بدا لها هذا التفسير منطقياً، لسوء الحظ، وشعرت بخيبة أمل. وتراءى لها مشهد لا يحتمل، لكنها بقيت تأمل أن يكون جويل فيبر قد جاء من أجلها وليس من أجل العمل الذي يجمعهما. وقبل أن تستجمع شتات نفسها، كان هو قد نقل انتباهه إلى ألان، مبتسماً بمودة ورقة.

ـ لقد أبطأت خالتك قليلاً في تعريفنا ببعضنا. أنا جويل فيبر، يا ألان.

فأجاب هذا الأخير بسرعة:

ـ ألان تاي جايمس.

وأشرق وجه ألان سروراً وهو يتقدم ليصافح يد جويل الممدودة.

ـ شكراً لمجيئك، يا سيد فيبر، خفت أن تكون خالتي تيفاني قد ارتكبت غلطة كبرى، إلى أن جئت إلينا.

ـ في الواقع، لقد أخطأت يا ألان. في المرة القادمة حين تتلقى اتصالاً كهذا، عليك أن تقول إنك ستعاود الاتصال بهم لتأكيد الحجز، وتتأكد من أن لديك كافة الإمكانيات قبل أن تحجز، وليكن لديك قائمة بالسفن

التي يمكنك استئجارها.

فقال ألان بلهفة:

ـ لقد فعلت كل هذا الآن، ولن أرتبك مرة أخرى.

ـ هذا حسن. أظن أن علينا أن نتذكر أن خالتك سيدة مغامرة جداً. أنا معجب بجرأتها، لكنها لن تكون دوماً بجانبك، يا ألان.

ومنح الفتى ابتسامة رجل لرجل، وتابع:

ـ ومن ناحية أخرى، إذا كان من شخص تعلّم مساعدة نفسه بنفسه، فهو أنت كما أتصوّر.

ضحك ألان مزهواً لهذا الإطراء، وقال:

ـ شكراً يا سيد فيبر. لقد طبعت هذا البرنامج لك، وأرجو أن يعجبك.

فنظر جويل إلى الورقة التي قدمها ألان له وقال:

ـ أنا واثق من أن بإمكاننا القيام بهذا. ما من داع للقلق يا ألان، أرسل السيّاح إلى المركب، وخذ منهم النقود ودع الباقي لي.

ـ سأفعل هذا، شكراً مرة أخرى يا سيد فيبر، أنا سعيد بالتعرف إليك، وأظن خالتك رائعاً.

ـ شكراً يا ألان.

تصافحا باحترام متبادل، وبمجرد النظر إلى وجه ألان وهو يستدير، أدركت تيفاني أنه وجد بطلاً آخر يبجّله. وشعرت بعرفان الجميل نحو جويل للطريقة التي تعامل بها مع ابن أختها. لم يكن في كلماته أي نبرة استعلاء، وفي سلوكه أيّ زيف. في الواقع، تفهمّت جيداً تجاوب ألان معه، فقد عامل جويل الفتى كما يفعل زاكاري، إذ أقرّ بشجاعته وقدّر طاقاته وتقبّله تقبلاً تاماً.

ـ هل أنت قادمة يا خالتي تيفاني؟.

ـ بعد قليل، يا ألان، اذهب أنت. أريد أن أتكلّم مع السيد فيبر.

وما إن تركهما ألان وحدهما، حتى رفع جويل حاجبه ساخراً. ولو

قيل لتيفاني إنه كان يمثل دوراً، لما صدّقت. فمهما جرى في السنوات العشرين الماضية وبدّله، بقي هذا الرجل أصيلاً، والجاذبية التي تشعر بها نحوه تضاعفت. قالت له بهدوء وهي تتحدى عينيه بعنف:

ـ أنت لا تنفك تقول إن الأوان قد فات، ولكن هذا غير صحيح.

فلوى شفتيه ساخراً:

ـ أنا أتذكر عندما كنت في الخامسة عشر من عمري، وكان هذا منذ وقت طويل يا تيفاني.

هزت رأسها وقد أدركت أنه يخفي في أعماقه أموراً، إما عنها وإما عن نفسه، وإما عنهما معاً. لكن ما أظهره لألان هو جويل فيبر الحقيقي، وكانت واثقة من هذا. قالت ببطء:

ـ ما تفعله اليوم... ليس عملاً. كان بإمكاننا وضع مرشد محلي مع قبطانك بدلاً من أن تحضر بنفسك، يا جويل.

وابتسمت له وقالت جملة لا بد أنه سمعها ولو مرة من قبل في حياته، إما من أمه وإما من جده: «إلعن الشيطان، وقل الحقيقة».

حدّق فيها لحظات عدة، فشعرت بذلك الجوع العميق في عينيه. وسرت قشعريرة في كيانها كلّه، وشعرت بوجنتيها تحمرّان وقلبها يدق بسرعة حتى أنه عندما حوّل عينيه الغامضتين عنها والتفت ليتأمل مياه الخليج، لم يتبدد التوتر بينهما. فأدركت أنه يشعر بها كما تشعر به.

ثم قال بطريقته الغامضة: «ربما أردتُ رؤية الحيتان مرة أخرى».

فتنهدت بخيبة أمل، وقالت بفتور:

ـ إذن يسرّني أن تجد شيئاً من البهجة، لأنني أكره أن أفكر في أنك أرغمت على القدوم إلى هنا.

كان قد ابتعد عنها... ابتعد عن الجميع.... وفجأة، لم تعد تستطيع الاحتمال، فسارت إليه، ووضعت يديها على كتفيه الصلبتين، ثم طبعت قبلة على وجنته.

ـ شكراً لأنك جعلت نهار ألان سعيداً، يا جويل.

ـ اجعلي يومي كذلك.

وجذبها إليه بذراعيه الحديديتين، وأدنى رأسه منها. ومن دون أن ينظر إلى عينيها، ضمّها إليه بعاطفة جياشة محمومة جعلت تيفاني تنجرف في دوامة من الأحاسيس أوهنت عزيمتها وقضت على قدرتها على اتخاذ أيّ قرار. سجنها بين ذراعيه مصراً على نيل تجاوبها الذي منحته له بشكل أعمى، فاجتاحت قلب هذا الرجل وعواطفه التي أخفاها عنها وعن نفسه. مدّ يده يلامس وجهها وخطوطه وبدا كأنه يريد أن يذيب روحها بقلبه وروحه. شعرت بأنها تعرف كل شيء عنه. كل عضلة في جسده، قوته، دفؤه، ورائحة رجولته... ومع ذلك ما زالت لا تعرف شيئاً... ما عدا نهمه الذي لا يشبع وعطاءه الذي لا ينضب.

وشعرت بنفسها تذوب بين ذراعيه وهو يجذبها إليه بشدة وارتجفت بين يديه كورقة في مهب الريح. ثم ابتعد قليلاً عنها. وتنفس بعمق وهو يهمس لها بصوت أجش:

ـ أنت تهتمين لأمري، والله يعلم أنني أهتم لأمرك أكثر مما اهتممت لأي شيء آخر في حياتي. لقد انتهى تبادل الخدمات بيننا، وبقينا نحن فقط، يا تيفاني، لأن هذا ما نريده. دعينا نبقى معاً.

فتحت عينيها، فوجدت عينيه تلتمعان بجمرة لاهبة مستعدة لإحراقها حتى تصبح رماداً. ولكن ماذا سيبقى بعد ذلك؟ فراغ كئيب خالٍ من الحياة؟ لم تكن تعرف، ولم تستطع أن تفكر.

كانت ذراعاها لا تزالان حول عنقه، وقلبها مفعم بأحاسيس لم تشعر بمثل قوتها قط من قبل... ومع ذلك...

قالت بحدة: «لا!».

ـ تيفاني....

وأثار صوته أعصابها.

ـ ليس الآن!

صرحت بذلك وقد اجتاح التردد عقلها وقلبها وهي تفكر في أنه لا

يمكنها أن تنساق وراء أحاسيسها، ضاربة عرض الحائط بكل شيء آخر.

أثناء هذه اللحظة المتوترة، تصاعدت الأصوات في الخارج، وأخذت الأبواق تزعق، تعلن وصول الحافلات التي تقل السياح اليابانيين.

وتصاعدت آهة ممزقة من حلق جويل: «أنت على حق. لا أريد أن أتسرّع في هذا الموضوع».

واحترقت عيناه في عينيها حين أضاف: «إبقي معي هنا اليوم».

لم تكن تيفاني تنوي البقاء على اليخت... لكنها لم تعلم أن جويل سيكون هنا، كما لم يكن لديها ما تفعله، فأجابته: «نعم، إذا كان هذا ما تريده».

وفكرت في أنها ستمضي مزيداً من الوقت معه، فتتمكن من تقييم ما ستفعله وكيف تفعله على أفضل وجه. وقال عابساً:

ـ أنت ما أريده، وما جئتُ لأجله. هذه هي الحقيقة.

حرّرها من بين ذراعيه وأخذ يلامس وجهها برقة بالغة، وقد تحوّل اللهب في عينيه إلى لمعان هادىء.

لم تشأ أن تبتعد عنه، ولكن للضرورة أحكام وليس أمامها خيار سوى الالتفات إلى عملهما. كانت تيفاني قد مزقتها مشاعرها بشكل كاف، وأمضت وقتاً طويلاً في خمود عاطفي حتى أن نظرة واحدة من جويل الآن تذكرها بهذا، وتؤجج الجمر الذي كاد ينطفىء في قلبها.

لم تسعد تيفاني باليوم الذي أمضته برفقة جويل، رغم أنه كان يجدر بها ذلك. فقد استمتعت بكل ما يقدمه هذا اليخت من رفاهية وحصلت على كل ما أرادته، من مشروب فاخر وطعام لا يُقدّم إلا في أفخم المطاعم واختلطت برجال الأعمال اليابانيين وزوجاتهم. كما أن حيتان هاڤن بي لاقت نجاحاً كبيراً فالتقطت لها آلاف الصور وصُوّرت عنها مئات أفلام الڤيديو. وأملت تيفاني أن يباع بعضها في القرية.

لم يقع أي خطأ، ولم يكن بالإمكان انجاز الأمور بشكل أفضل. لكن يكمن وراء ذلك كله قلب جويل فيبر النابض. ولم يكن سلوكه الساحر

ولا إلمامه بأي موضوع يتحدث فيه كفيلاً بصرف تفكير تيفاني عن تلك المشاعر التي رأتها في عينيه.

كان ذلك مثيراً ومخيفاً، مغرياً ومنفّراً معاً في آن. وفكّرت تيفاني في قرارة نفسها بأنها لا بد ستكون مجنونة إن صدّته، فقد حرك مشاعرها كما لم يفعل أي رجل من قبل. وربما سيتحقق حلمها أخيراً ويكشف لها أسراره ويشاركها في كل ما يعذب روحه، ويطلعها على ما لم يطلع أحداً عليه من قبل، فينسى الماضي ويعانق مستقبلاً يحمل لهما سعادة لا يمكن تصورها.

عادت واستدركت أنّ من الجنون أن تظن نفسها قادرة على إحداث أي تغيير فيه، فقد اعتاد الحصول على ما يريده، ولا بدّ أنه تعلق بها لأنها رفضته حتى الآن. ولكن إن تساهلت معه، لأصبحت مجرد واحدة من كثيرات حصل عليهن.

بغض النظر عن اضطرابها وتشويش أفكارها، شعرت بأنهما وُلدا ليكونا معاً، وأن لقاءهما ليس صدفة إنما تدبيراً من القدر. ولكن في حال رفضته فهل سيرحل عنها مرة أخرى، ولا يعود أبداً؟ رجال كثيرون تصرفوا بهذا الشكل.

شعرت بثقل القرار عليها. وعندما توجّه المركب نحو الرصيف أخيراً، كانت الشمس قد شارفت على المغيب. ودّعت تيفاني الركاب، ولم يعد لديها ما تفعله. كانت تعلم أن جويل يتوقع منها أن تعود إلى جانبه، ولم تشأ، بالطبع، التهرب منه لكنها ما زالت غير مستعدة لمواجهته.

عادت إلى اليخت واتكأت على الدرابزين حيث وقف تلك الليلة عندما رأى سفينة الصيد صدفة، فأخذ يراقبها... أتراها مجرد مصادفة أم قدر؟ هل يجدر بها اتخاذ قرار حاسم الآن، أم الانتظار؟

سمعت وقع خطواته، لكنها لم تلتفت. اتكأ على الدرابزين بجانبها مشيحاً بوجهه عن القرية التي يكرهها. شعرت بعينيه تتأملان وجهها وتحاولان اختراق أفكارها، وراحت إرادته الحديدية وشخصيته القوية

تضغطان عليها.

ـ عودي معي الليلة، يا تيفاني إلى «جزيرة ليجر». إبقي معي.

كان يتحدث بصوت خافت خفق له قلبها باضطراب مخيف، وأجابت هامسة: «ليس الليلة، يا جويل».

ساد صمت طويل ثقيل قبل أن يلح عليها بالسؤال: «أليس هذا ما تريدينه، يا تيفاني؟».

استدارت إليه، وأخذت عيناها تبحثان عن عينيه تلتمسان الطمأنينة.

ـ أنت لست الوحيد الذي عليه أن يبحث عن أجوبة، يا جويل.

لم يحاول أن يتجنّب ما تعنيه، وكانت الرقة لا تزال مرتسمة على ملامحه، إنما ممزوجة بشك جعله يبدو ضعيفاً:

ـ لا أدري أي سؤال توجهينه، حتى أعطيك الأجوبة التي تطلبينها.

بدت كلماته قاسية وكأنها لمست مشاعر متضاربة في نفسه:

ـ مهما كان ما تريدينه، سأحاول أن أعطيك إياه، إذا كان في متناولي.

وأخذت تيفاني تتساءل إذا كان الحب في متناوله وهل يمكنها أن تجيب على أسئلته وحتى لو أمكنها ذلك؟ أتراه سيحاول حقاً أن يعاملها بالمثل ويكشف لها سرّه الدفين؟

وعاد يقول لها بصوت رقيق عذب: «جعلتني، أكثر من أي امرأة عرفتها، أرى أشياء أردتها ولم أحصل عليها قط... أشياء لا يستطيع المال أن يشتريها. لكن لا يمكنني أن أخبرك إلى أين يؤدي هذا الطريق يا تيفاني. وكل ما أعلمه هو أنني إذا لم أحصل عليك فسأفكر على الدوام في الخسارة التي منيت بها».

تمتمت: «نعم».

كانت تفهم وجهة نظره وقدّرت له صدقه فتابعت كلامها:

ـ وأنا أيضاً لن أكذب عليك يا جويل، ثمة ما يجذبني إليك بقوة بالغة. ومن السخافة أنني أشعر تقريباً... بالحماية. وأخشى أنّ شيئاً

هاماً جداً قد يتحطم إذا... تصرفت بشكل خاطىء.

فقال بنفاد صبر:

ـ وكيف يمكن أن يكون خطأ؟ حدسي ينبئني أن هذا هو عين الصواب، لم أشعر قط من قبل بشيء أكثر صواباً من هذا. لا تكذبي على نفسك.

ـ الأمر ليس سهلاً بهذا الشكل يا جويل.

قالت هذا بحرارة وهي تنطق بشكوكها: «أشعر أنك لا تريد أن تدعني أدخل حياتك، وأنك أقمت حولك حواجز لا تريدني أن أتجاوزها، أو يتجاوزها أحد آخر. لا أريد أن أتعلق بك... فأشعر بعد ذلك بالوحدة والوحشة».

واغرورقت عيناها بالدموع قبل أن تضيف: «أنا آسفة، لا أستطيع الذهاب معك. لن أفعل ذلك».

حتى من خلال دموعها، استطاعت أن ترى ثورته على مخاوفها، وقال بخشونة: «قد يكون الأمر مختلفاً معك».

وأمسك بيدها يشبك أصابعه بأصابعها مضيفاً: «جربي حظك... هذه المرة... معي».

شعرت بيأس غامض وراء كلماته فكادت تستسلم. وشعرت بقلبها يدفعها إلى موافقته، لكن عقلها ألهمها بأن تضحيتها لن تقابل بتضحية أخرى من جويل، وأنها ستكون مجرد علاقة عابرة في حياته، ولن يشعر تجاهها بأي التزام. هزت رأسها بحزن وأسف:

ـ هذا لن ينفع يا جويل، ما دامت الأمور بهذا الشكل.

بدا الإحباط على ملامحه، والتهبت عيناه غضباً مراً:

ـ ربما كان علي أن أمنّيك بالأكاذيب.

فردّت بحدة: «كنت سأدرك ذلك يا جويل. لا تقلّل من شأن ذكائي».

تبادلا نظرات غاضبة، وتحوّلت عيناه إلى عبوس ساخر، ثم أطلق

يدها مبدياً إشارة صغيرة يظهر فيها رفضه لاستعمال القوة. وقال بصوت مؤثر آلمها:

- إلى أين سينتهي أمرنا، إذن؟ إنني أفكر فيك لدرجة أنه لا يغمض لي جفن طيلة الليل. لن أنهزم بسهولة، يا تيفاني. قريباً جداً سنكون معاً مهما كانت أفكارك، وأينما قادتك. لا يهمني، فستوافقين في النهاية لأنني لن أستسلم حتى تذعني.

وشعرت بالارتياح. لم ينته الأمر بينهما. ابتسمت له وقالت: «إذن، أظنني سأراك في محطة التلفزيون غداً، إذا كنت هناك... إذا شئت أن تكون هناك».

فلوى فمه ساخراً: «إذا رافقتني إلى الجزيرة سأتمكن من مرافقتك شخصياً».

- سأذهب بنفسي.

قالت هذا بحزم، فتأوّه باستسلام مجيباً: «سأرسل السيارة».

- لست مضطراً لذلك.

فقال بجفاء:

- أنا أتمسّك بالتفاصيل، وأحب المظاهر. ستمر السيارة لتأخذك عند الساعة الثامنة.

ولمعت عيناه عزماً وتحدياً وهو يضيف قائلاً: «سأكون في المحطة التلفزيونية لأسلمك مهامك الجديدة، لكنني لن أبقى هناك وإلا انكشفت اللعبة. لقد علمتني الحياة الصبر لنيل ما أريد. ستتفق عاجلاً أم آجلاً، يا تيفاني جايمس. وكلما كان ذلك أسرع، كلما كان أفضل. لكنني مستعد للانتظار، وعندما نتفق، لن يكون لذلك أي علاقة بهاڤن بي أو نيريدا بيلامي أو بأي شيء آخر. إنما بنا نحن أنا وأنت».

فابتسمت ابتسامة مرتجفة: «أظن ذلك سيعجبني. الصداقة المناسبة في الوقت المناسب».

كانت ضحكته قصيرة حادة ساخرة وهو يقول:

- لن أعتمد المنطق في هذا يا تيفاني، لقد تخليت عنه منذ زمن طويل. واجهيني إن شئت لكنني أؤكد لك أنه مهما فعلت، أنا الرابح.

- أرجو ذلك، من أجلك أنت، ولكن ماذا تريد أن تربح؟ إسأل نفسك هذا.

قالت ذلك وعيناها تتحديان عينيه وهي تضغط على يده بسرعة. وقبل أن يجيب استدارت بسرعة وتوجهت نحو الجسر المتحرك ومنه إلى رصيف المرفأ عائدة إلى أمن هاڤن بي.

لم تنظر إلى الخلف، وعندما أصبحت بعيدة عن اليخت، استدارت، فلم تجد جويل يراقب رحيلها عند الدرابزين. عادت إلى القرية التي يكرهها، وهدر محرك اليخت استعداداً لحمله إلى منزله الحصين في «جزيرة ليجر».

اتكأت تيفاني على السور، وأخذت تراقب اليخت وهو يبتعد. كان الإحساس بالضياع والإحباط يؤلمها، ولكنها لم تشعر بالفراغ، فهي تفكر في أن غداً يوم آخر... لا بد من طريقة تصل بها إلى عقل جويل فيبر وقلبه، وعليها أن تجدها.

* * *

٩ ـ دم وعرق ودموع

وحسب الوعد، جاءت السيارة لتقلّ تيفاني عند الساعة الثامنة من صباح الإثنين. وكانت سيارة فخمة، لم يشاهد مثلها أحد في هاڤن بي على الإطلاق. لكن هذه السيارة لم تكن فخمة وحسب إنما فارهة مترفة حمراء متألقة، وتخصّ المجتمع الراقي.

بدت متناقضة جداً مع كوخ كارول المتواضع الذي غيّرت لونه العوامل الطبيعية والموجود في شارع صغير متواضع. وأزيحت الستائر في ذلك الصف من المنازل، وتراكض الأولاد للتفرج على هذه السيارة الأسطورية. وكان ألان أولهم، فراح ينظر بعينين جاحظتين إلى السيارة الرائعة التي أتت لتقلّ الخالة تيفاني.

بدا كل ما فيها لامعاً، بما في ذلك ملابس السائق الذي ترجّل من السيارة ووقف قرب الباب الخلفي، وأخذ يجيب بلطف على أسئلة الأولاد أثناء انتظاره وصول تيفاني.

كانت كارول قد رافقت تيفاني إلى «الشرفة» حيث وقفتا وأخذتا تحدقان بذهول إلى هذه السيارة المترفة، وقد خطر لكليتهما السؤال نفسه. هل توضع مثل هذه السيارة تحت تصرف المدراء الآخرين في المحطات التلفزيونية؟

وقالت كارول وهي تلقي على تيفاني نظرة جانبية: «أظن أن في الأمر أكثر مما أخبرتني به، يا تيفاني. لا بد أن جويل فيبر يفكر فيك كثيراً».

ـ لا بد أن هذه السيارة تناسب الوظيفة.

قالت تيفاني هذا بصوت مرتفع بينما راحت أفكارها تدور في رأسها وتدور. قد تكون هذه إشارة منه إلى ما يمكنه أن يعطيها إذا اختارت أن تذعن له. فإذا كانت هذه رشوة، فهو يحسن القيام بها!

غير أنها لن تبيع نفسها لأي كان، لقد حاول أرماند ذلك، فلم ينجح معها. وعلى أيّ حال، قررت على الفور أن تشتري لنفسها بعض الملابس الفخمة لتناسب السيارة. طقمها الصيفي الأزرق مقبول اليوم. ولكن ملابسها بشكل عام، عادية ومريحة، ولا تناسب على ما يبدو الصورة التي يريدها جويل فيبر أن تظهر بها. إذا كان هذا كله لأجل نيريدا، وهذا احتمال لا يمكن استبعاده، فهي مدينة لجويل بالتعاون التام معه.

قبّلت كارول مودعة، ثم نزلت إلى الممر الأمامي، بخطوات حازمة. (جرأة) و(فخامة)... وابتسمت لنفسها، (إمرأة مغامرة جداً) وقد تزيد عدد مشاهدي المحطة التلفزيونية، فتسبب هزة جيدة لجويل فيبر.

هذه السيارة لا يمكن أن ترهبها أو تؤثر فيها. فإذا كان من حقها أن تستعملها، فستستعملها حتماً وكأنها أمر مسلّم به.

ـ صباح الخير يا آنسة جايمس.

وفتح لها السائق الباب لتصعد. وقفت تيفاني تبتسم للرجل:

ـ صباح الخير، هل لي أن أعرف اسمك؟.

ـ بيتون، يا آنسة.

ضحكت، وتذكرت قول جويل، (حريص على التفاصيل). ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام. وقالت للسائق بثقة تامة:

ـ هذا ليس اسمك الحقيقي، أليس كذلك؟

فأجاب بابتسامة صغيرة مكتومة:

ـ لا، يا آنسة. لكنه اسمي أثناء عملي معك. إنها أوامر السيد فيبر. إذا سألني أحد فأنا «بيتون». قال السيد فيبر إنك ستفهمين المعنى، يا

آنسة.

ـ طبعاً، وشكراً لك يا بيتون.

بدأت تفهم أساليب جويل فيبر، فهو عندما يقوم بالألاعيب، يلعبها إلى النهاية. ستكون هذه الوظيفة الجديدة ممتعة للغاية.

صعدت إلى السيارة وغاصت في المقعد الوثير والمريح والفخم. أغلق السائق الباب ثم عاد إلى مقعده. وعندما دبّت الحياة في المحرك القوي، لوّحت بيدها لألان ضاحكة، فيما راح هذا يطلب من الأولاد الابتعاد عن طريق السيارة. وبادلها الابتسامة ملوّحاً بيده. وفكرت تيفاني في أن احترامه لجويل الآن تضاعف من دون شك. من سوء الحظ في هذه الحياة، أن تكون للمراكز الاجتماعية مثل هذا التأثير على حديثي السن.

وتمنت، مرة أخرى، ألاّ يفقد سكان هاڤن بي اتزانهم إزاء مشروع السياحة الجديد. لكنها قامت بكل ما في وسعها حالياً، وبقيت تأمل أن تتمكن من إقناع جويل بمساندتهم، وإلا، فلا بد أن يفعل هذا شخص آخر إذا استمرت الأمور جيدة كما ابتدأت.

عندما خرجت البنتلي الحمراء اللامعة من البلدة، ساور تيفاني إحساس بأنها تبدأ مغامرة جديدة. ستستمر طبعاً في مواكبة ما يحدث في هاڤن بي أثناء الشهر التالي، إذ سيوافيها ألان وكارول بالتقارير، إنما اليوم هو البداية الحقيقية لتطور علاقتها بجويل فيبر. وهو يحتلّ سلّم أولوياتها.

أخذها السائق مباشرة إلى المحطة التلفزيونية، ثم قال لها باحترام وهو يفتح لها باب السيارة:

ـ إتصلي بمكتب الاستقبال عندما تحتاجين إلى السيارة يا آنسة جايمس فأكون هنا في انتظارك.

وابتسمت له تيفاني شاكرة. لاحظت أن موقف السيارات المخصص للمدير فارغ، ويبدو أنه لم يكن متوقعاً منها أن تسير مسافة قصيرة. وقالت بحرارة: «شكراً يا بيتون، أرجو أن يكون نهارك جيداً كنهاري».

سرت حماسة رائعة في كيانها، واستغرق منها تمالك نفسها جهداً ملحوظاً، وهي تدخل صالة الاستقبال الرئيسية في المحطة. وكانوا يعرفونها من الفيلم الوثائقي، فنهض رجل عن كرسيه على الفور للترحيب بها، وعرّف عن نفسه ثم رافقها إلى قاعة الإجتماعات حيث كان جويل فيبر وكل رؤساء الأقسام في انتظارها.

لم تتحدث تيفاني مع الرجل أثناء اجتيازهما الممرات، ولا اهتمت بالنظرات المختلسة التي رمقتها، فقد أرادت تقوية مركزها أولاً، قبل أن تتعرف إلى العمال والموظفين. سارت بمشية تعكس السلطة، لكن قلبها كان يخفق توتراً وتوقعاً. يبدو أن جويل قرر ألاّ يعقد معها اجتماعاً خاصاً هذا الصباح، مما جعل الوضع دقيقاً نوعاً ما، غير أنه لم يثبّط عزيمتها.

بدت قاعة الاجتماعات مليئة بالرجال الذين نهضوا جميعاً عندما دخلت. وتقدّم جويل فيبر ليحييها، منتقلاً على مهل من رأس الطاولة، وكأن الأمور لم تختلف عن العادة. بدا ببذلته الأنيقة سيد الاجتماع فضلاً عن أن شخصيته تسمح له بالسيطرة على أي مجموعة. بدا كذئب منعزل، شخص ينظر إليه الجميع بحذر بالغ. كان لطيفاً ورقيقاً يعامل الناس بالاحترام والتهذيب المناسب فقط.

ـ آنسة جايمس....

قال هذا وهو يأخذ يدها بيده الدافئة القوية المتملكة، المناقضة تماماً لعينيه الهادئتين الجامدتين اللتين لا تفصحان عن أفكاره أو مشاعره، والتوت شفتاه قليلاً وهو يسألها:

ـ أظن رحلتك كانت... مريحة.

فقالت راجية ألاّ يلاحظ خفقان قلبها العنيف:

ـ بيتون، كما تعلم، يمكن الاعتماد عليه كلياً.

كان يبذل شيئاً من الجهد للسيطرة على شفتيه اللتين بقيتا ملتويتين قليلاً وهو يقول بلهجة ذات معنى:

ـ من النادر أن يعثر المرء في هذه الأيام على شخص يمكن الاعتماد

عليه. وهي صفة أقدّرها في الإنسان، لا سيّما إذا كان الأمر يتعلق بأمر لا يسير على ما يرام، مثل رفع نسبة المشاهدين في محطة التلفزيون هنا.

وترك يدها ليمسك بمرفقها: «والآن، فلنباشر العمل».

رافقها إلى كرسي إلى يمينه عند رأس الطاولة، وأشار إلى الجميع بالجلوس، ثم قال يخاطب المجتمعين بكفاءة واختصار:

- الآنسة جايمس، كما تعرفون جميعاً، ستستلم منصب المدير التنفيذي هنا. وأتوقع منكم جميعاً أن تتعاونوا معها وتزوّدها بكل ما تحتاجه من معلومات، وتتقيدوا بأي قرار تصدره. فكما تعلمون جيداً، الكل متلهف لمعرفة النتيجة ولن أضيّع الوقت في التعارف الآن. والذين لم يسبق لهم أن تعرّفوا إلى الآنسة جايمس، يمكنهم القيام بذلك بعد هذا الاجتماع. وأنا واثق كل الثقة في أنكم ستساندون بعضكم بعضاً لإنجاز ما نريده جميعاً.

والتفت إلى تيفاني بابتسامة صغيرة مشجعة:

- والآن، أنا واثق من أن الآنسة جايمس تودّ أن تقول لكم كلمة.

- شكراً، يا سيد فيبر.

فجلس بينما وقفت هي.

سرّها أن ترى امرأتين بين الموجودين لأن هذا خفف من شعورها بالعزلة بين هذه المجموعة من الرجال حيث تحتاج إلى كل ذرة من الثقة بالنفس لكي تقول كلمتها هذه. ولم تظن أن جويل سيبدو بمثل هذا الارتياح والرضى عن النفس أثناء الحديث الذي ستلقيه.

كانت العيون التي تسمّرت عليها حذرة، لكن تيفاني تعلم بالخبرة أن الناس يخشون التغيير فهو يقلقهم ويزعزعهم ويهز إحساسهم بالثقة بالنفس ويسلبهم الشعور بالأمان. لذا ما عليها أن تقوم به هو زرع الأمل في المستقبل، وإقناعهم بأن يكونوا أكثر مرونة في طريقة تفكيرهم.

منحت الجميع ابتسامة مودّة. فبالرغم من ضرورة أن تدعوهم إلى عمل جماعي تقوده هي إلى مزيد من النجاح، إلاّ أنها بحاجة إلى تعاونهم

وولائهم. وقالت في سرّها إن من يخشى المغامرة لا يعرف النجاح. ثم ابتدأت تقول بدون أي مقدمات: «اليوم عيد القديس كريسين».

نجح كلامها في لفت الانتباه، وأخذ كل منهم يحدق إليها متسائلاً، بينما تابعت تشرح لهم: «منذ ستمئة سنة تقريباً، وقعت معركة «أجينكورت» التاريخية يوم عيد «القديس كريسين»».

قالت هذا بلهجة تقرير واقع، ثم دخلت صلب الموضوع: «لا أبالغ إذا قلت إن محطتنا التلفزيونية تستعد اليوم للمعركة تماماً كما فعل الإنكليز المحاصرون من الجيش الفرنسي في سهول «أجينكورت». لم تكن احتمالات الفوز كثيرة، وكانت الحرب تتطلب شجاعة وثباتاً واقتناعاً تاماً بأن أي وسيلة أخرى للعمل غير مقبولة».

وبدا على المستمعين لمحة من الاهتمام الآن، فتنفست تيفاني بسرعة وتابعت:

- لذا سأعرض عليكم ما عرضه الملك هنري الرابع على جنوده. إذا لم يكن لديكم من الشجاعة ما يجعلكم تحاربون وتهجمون إلى الأمام، وإذا كنتم تفضلون العودة إلى بيوتكم الآن، فافعلوا هذا. القرار الصعب هو أن تبقوا، لأنني لا أعدكم إلا بكثير من الدم والعرق والدموع. سأكون دوماً معكم، أربع وعشرين ساعة يومياً. ولكن إلى أن يبلغ عدد المشاهدين المستوى المطلوب، فأنا أتوقع الجهد نفسه منكم جميعاً. لهذا، أرجوكم... من أمامه فرص أخرى للعمل فليغادر الآن. ترك العمل ليس معيباً.

حصلت الآن على انتباههم الكامل، ولم يتحرك أحد، ولم يرمش جفن، حتى أنهم لم يلقوا نظرة على جويل فيبر ليروا ما يفكر فيه. ولم تلتفت تيفاني، إذ لم يكن بإمكانها ذلك عند هذه النقطة من حديثها. تركت لحظة التوتر تمرّ، ولكن لم يغادر أحد.

ابتسمت لتبدّد التوتر، ثم تابعت تقول:

- وأنا أيضاً أعتقد أن كل المجد هو في البقاء. وعلى أيّ حال، لن

يكون الأمر سهلاً. دعوني أقول في البداية إن ما لدينا هنا في هذه المحطة هو مشكلة لا يمكن حلها بطريقة الترقيع. فقد سبق وحاولنا ذلك وفشلنا مراراً وتكراراً، إننا بحاجة إلى هجوم كامل.. إلى أفكار ثورية. سأبدأ بإعطائكم فكرة مختصرة عن خطتي. أولاً...

وهنا قاطعها جويل بصوت أشبه بالفولاذ:

ـ هل لك أن تتوقفي هنا لحظة، يا آنسة جايمس؟

هوذا الاصطدام قد وقع... وانقبض قلب تيفاني وهي تفكر في ذلك. وبشكل ما، استطاعت أن تحافظ على التعبير التهكمي على ملامحها وهي تلتفت إليه... بدا واضحاً لها أنه يكاد لا يتمالك نفسه. كان وجهه قناعاً متوتراً وفي عينيه لمعان خطر واللهب يندفع نحوها مباشرة.

سألته بلهجة هادئة بينما التوتر قد تملكها إلى درجة الشعور بالدوار: «هل تريد التعليق، يا سيد فيبر؟».

هبّ واقفاً، والرغبة العدائية في الهجوم تنبعث من كل جزء من قامته، ثم قال وهو يكاد يختنق من الإنفعال:

ـ خطتك هذه... هل لي أن أنفرد بك لحظة؟

ـ طبعاً يا سيد فيبر.

نطقت بذلك برباطة جأش لم تتوقع أن تتحلى بها، وأدركت أنه سيمزقها إرباً إرباً لتجرؤها على الخروج عما وضعه. ولكن ما من شيء يجعلها تغيّر رأيها.

ألقت ابتسامة على الموجودين: «أرجو المعذرة، سأعود سريعاً».

قد تفعل ذلك وقد لا تفعل، لكنها ستستمر في حمل الراية حتى تسقط نهائياً.

سار جويل فيبر إلى الباب، وأمسك به. ولكن قبل أن تخرج تيفاني، رمقت الوجوه التي استدارت نحوهما، ورفعت رأسها قليلاً بسلطة وعزم، ثم قالت مصممة على ألاّ تتركهم مزعزعي الثقة: «فترة الاستراحة هذه ستمنحكم فرصة لتتبادلوا الآراء، إذا شئتم، وتضعوا تصوراً

للمستقبل إذا كنا سنبقي على هذا العمل عالياً مستمراً».

سمعت جويل يتنفس بحدة فاندفعت بجانبه خارجة بدون أن تتفوه بالمزيد. وعندما أصبحا في الممر، أمسك بذراعها بقبضة حديدية وجرّها إلى مكتب شاغر فخم لأحد المدراء المهمين.

تجاهلت تيفاني شعورها بالغثيان، وسألته بوجه مشرق: «هل هذا مكتبي؟».

فأجاب مزمجراً وهو يديرها نحوه بعنف لتواجهه وأصابعه مغروزة في ذراعها:

ـ كان سيصبح كذلك، أي لعبة جهنمية تلعبينها، يا تيفاني؟ أنت تعلمين جيداً أنك مديرة بالإسم فقط، وقد وافقت أنت على ذلك!

ـ نعم، هذا صحيح. لكني غيّرت رأيي، لأن...

فسألها وعيناه تلمعان باتهام مرّ: «هل تتراجعين عن كل ما تقولينه؟».

ـ أبداً. فأنا أستمر حتى النهاية، كما سترى إذا...

ـ هل كنت تستخفين بي أمس؟.

ـ أنا لم أستخف بأي إنسان في حياتي!.

قالت هذا بحرارة وقد أفزعها ظنه هذا بها.

لوى فمه بسخرية عنيفة: «لا، أربكتني فقط، ثم ذهبت دونما اهتمام. وها أنت الآن تغيرين الأمور مرة أخرى».

قالت ضارعة: «هذا أمر بسيط وشريف، يا جويل».

فقال وهو يصرف بأسنانه:

ـ لا شيء عندك بسيط وشريف، لا شيء!.

وترك ذراعها بعنف يدل على السخط البالغ. وأخذ يذرع الغرفة وقد ثارت مشاعره بحيث لم يستطع السيطرة عليها. ومع ذلك، كان العزم البادي عليه يدل على أنه لن يدع ذلك يهزمه.

أمسكت تيفاني لسانها وهي تهتز لغضب جويل المتفجر هذا، لكن

الغريب أن فقدانه أعصابه أرضاها، فأي شيء أفضل من ذلك القناع الساخر الذي يختبىء دوماً وراءه. ربما وصلت إلى داخله بطريقة لم تكن تتصورها، فأرغمته على أن يعيد التفكير في أشياء أصبح يعتبرها، على مر السنين، من المسلّمات.

وعندما استدار إليها بعنف، كان يحملق فيها، ويتحداها مرة أخرى، أن تنكر ذلك.

* * *

١٠ ـ لن أدعك تذهبين

لم يدم الشعور بالحماسة طويلاً، فالوضع في المحطة التلفزيونية خطير للغاية. وكان جويل على صواب حين قال إن هذا الأمر ليس بينه وبينها فقط. عليها أن تنجح لأجل كثيرين غيرهما، فوظائف الناس على المحك، فضلاً عن مبالغ ضخمة من المال. وكان على تيفاني أن تحارب دوماً شعوراً بالخوف من أنها تعهّدت بأشياء أكثر مما تستطيع أن تفي بها. وشكّل ذلك الشهر الواحد الذي عليها أن تنهي العمل فيه مشكلتها الكبرى. لم يكن لديها وقت لحملة طويلة الأمد. والوقت بالكاد يكفي إما للنجاح وإما الدمار. وكانت بالغة الانشغال بالاجتماعات ودراسة الأبحاث واتخاذ القرارات إلى درجة أنها لم تستطع التفكير في ما يفعله جويل بعيداً عنها... ولا حتى للخروج وشراء ملابس.

لكن هذه المشكلة الأخيرة كانت سهلة الحل نسبياً، فقد استدعت تيفاني رئيس قسم الملابس النسائية وأوضحت له ما تريد، فأحضر لها مجموعة من الملابس من أفخم المتاجر في «بريزين» لكي تختار منها. وكلفها ثمن ما اختارت مبلغاً لا بأس به من شيك جويل، لكنها تعرف قيمة المظاهر بالنسبة إلى النجاح.

مضى الأسبوع الأول محموماً قلقاً، وغالباً ما كانت تيفاني تعلم «بيتون» السائق بأنها ستبيت ليلتها في المحطة التلفزيونية ولن تحتاج «البنتلي» قبل اليوم التالي. ونادراً ما كانت ترى كارول أو ألان، لكنهما طمأناها إلى أن الأمور في هاثن بي على ما يرام. عندما طوروا البرنامج

www.elromancia.com

الأسبوعي في المحطة (المنظر الجديد)، أجرت مكالمات طويلة مع أخيها زاكاري لي، تطلب نصيحته بالنسبة إلى التغيير، مسجلة ملاحظاته عن خبرته، واضعة التعديلات التي يقترحها. لكنها كانت في أكثر الأحيان تصغي إلى رؤساء قسمها.

وبما أنهم تحرروا من قيود الإدارة التقليدية، أخذوا يدلون بانتقاداتهم ويخرجون بأفكار كانت تخفى خوفاً من الازدراء أو الاستخفاف. وقدمت تيفاني أفكارها الخاصة، متقبلة كل انتقاد. فنتج عن هذا كله ثمار هجينة تحوّلت إلى ثمار أصيلة، أقلّه من بعض النواحي. ثم ابتدأت تتصرف، فدفعت بمبادراتها التي كانت الإدارة الحذرة التقليدية تتردد طويلاً قبل الإقدام عليها. غير أن الوقت كان ضيقاً جداً.

خُصّص الأسبوع الثاني لاختبار رد فعل المشاهدين، فكان التغيير الذي أحدثوه مهماً، إذ ارتفعت نسبة المشاهدين.

الإختبار الصعب كان في الأسبوع الثالث عندما لم يعد الناس يشاهدون المحطة من باب الفضول وحسب. واستحال التوتر المحموم الذي ميّز الأسبوع الأول تفاؤلاً حذراً في نهاية الأسبوع الثاني.

حوّلت تيفاني انتباهها إلى تحسين أداء العروض التي أُخرجت في استديوهات المحطة وحرص محرّرو الأخبار على تنقيح نشراتهم والتدقيق فيها. وأصبحت العروض المخصصة للأطفال أكثر تسلية وترفيهاً، وابتعدت عن الثرثرة التافهة. وألغيت بعض البرامج، فيما أُحدث في البعض الآخر تغيير شامل.

أمّا العرض الذي حافظ على تقدير الجمهور العالي، فهو برنامج (مجرى الأحداث) الذي يلي الأخبار. والفضل يعود في ذلك بشكل رئيسي، إلى نجمته «سامانتا ريدمان» التي كان المشاهدون يستمتعون للغاية بمقابلاتها ودقة ملاحظتها. لكن، وقبل نهاية الأسبوع الثالث وقعت كارثة، إذ أصيبت سامنتا في حادث سيارة وهي تتجه إلى المحطة للعرض الليلي. وعندما وصل الخبر إلى المحطة، لم يكن الوقت يسمح بإحضار

بديل مناسب، فراح «غوردون ويست» مخرج البرنامج يشد شعره غيظاً.

ـ إنه برنامج هام، منذ أسابيع ونحن نحاول تدبير مقابلة مع «نيل باترسون».

كانت سامنتا ستهلك ذلك السياسي الذي ينزف قلبه دماً على المساكين، وتحرجه في أسئلتها... تفهمت تيفاني سبب قنوطه جيداً، فمقابلة «نيل باترسون» أمر استثنائي، لأن هذا الرجل متهم باختلاس ملايين الدولارات من أموال المؤسسات الخيرية. وهو ما زال يخدع الناس ويتظاهر بأنه مهتم بالفقراء والمعوقين. وحتى الساعة ما زال يتهرب من تقديم حساب بتلك الأموال، متهماً الصحافة بالصيد في الماء العكر. وكانت سامنتا ريدمان تنوي إحراجه ونزع هذا القناع عنه، ولا بد أن المقابلة ستكون رائعة. قال غوردون متأوهاً:

ـ لقد أعلنّا عن هذه المقابلة في كل الصحف، والجميع يترقبها. ولن نستطيع مقابلة ذلك الوغد المراوغ مرة أخرى، تحديد الوقت هو أهم شيء!.

ـ أنا سأقوم بذلك.

صدرت الكلمات عن تيفاني بدون وعي منها، فقد اعتادت إجراء مقابلات وإن لم تكن على هذا المستوى. لذا يمكنها إجراء هذه غير أنها ستكون الأصعب في حياتها.

وافق غوردون على قرار تيفاني من دون نقاش، ولكنه بدا وكأنه تلقى صفعة قوية. فمثل هذه المجازفة قد تسيء إلى سمعتهما إلى حد بالغ. لكنه تمالك نفسه، وتمكن، في الوقت القصير الباقي، من أن يبذل جهده في تدريبها على حفظ كل التفاصيل عن خلفية ذلك الرجل.

* * *

عند السادسة والنصف، كانت تيفاني أمام الكاميرا. تقدم «نيل باترسون» إلى المشاهدين. رجل في الخامسة والخمسين من العمر، رشيق، وسيم قد خطه الشيب، ينضح جاذبية وسيطرة رقيقة. هدأت على الفور

ضيقه وقلقه حين أخذت تعدد بلهجة الإعجاب إنجازاته الكثيرة في تمويل دور الإحسان. أحست بغروره، وأدركت أنه يظن أن هذه المقابلة ستكون سهلة، إذ اعتبر نفسه سياسياً بارعاً اعتاد إقناع الناس. أمّا هي فلا أحد يعرفها، لذا لا داع للقلق.

كان عذب الكلام، مقنعاً بأجوبته السريعة، لكنه اعترف بأن ملايين الدولارات فقدت من المؤسسات الخيرية التي يشرف عليها. فقد ضاعت السجلاّت في حريق شبّ في المكان، والذنب ليس ذنبه كما أن المعاملات المالية معقدة لدرجة أنه لم يستطع أحد أن يتذكرها. راح يتكلم كالملاك.

لم تستطع تيفاني أن تصل إلى شيء، حتى أنها ابتدأت تحترم نيل باترسون لقدراته المدهشة. إذا كان هذا الرجل مذنباً وارتكب خطأً شنيعاً، فهي عاجزة عن إثبات ذلك. لكن لعل سامنتا ريدمان كانت قادرة على ذلك. فمن المؤكد أن نقاش تلك المرأة العدائي يتلاءم مع المقابلات التلفزيونية أكثر من هذا الحديث الرقيق المسالم، وربما شعر المشاهدون بالسأم. كان إحساس تيفاني بالفشل من الشدة بحيث جعل من الصعب عليها تركيز ذهنها على طرح المزيد من الأسئلة.

وعندما اقتنع باترسون بأنه جاء إلى هذه المقابلة ليُمتدح لا ليُذم، أظهر ازدراءه لها بتوجيه الحديث نحو أمور تافهة تماماً، حتى أنه أخذ يتحدث عن النجاح الكبير الذي حققته مبيعات الأزرار في المؤسسة الخيرية.

ـ لقد صدّرنا السنة الماضية (٣٧٥٠،٠٠٠) زراً بعناها في (٢٠،٠٠٠) سوقاً.

ثم قال بسرور بالغ: «وقد بيعت كلها ما عدا (٦٤٧) زراً».

تمتمت بابتسامة مرغمة: «أمر استثنائي فعلاً، يبدو أن لديك قدرة هائلة على تذكر التفاصيل الدقيقة، أنت تستحق التهنئة، يا سيد باترسون، فلديك أحد أعظم الأدمغة التي قابلتها».

فقال بضحكة متواضعة:

ـ أنت تبعثين الغرور في نفسي، يا آنسة جايمس.

ـ أبداً.

ثم أضافت من دون تفكير: «ما دام بإمكانك أن تتذكر كل هذا... مثل هذه الأرقام الدقيقة لعملية تجارية صغيرة نسبياً حدثت منذ سنة، من العار إذن أن تختفي كل تلك الملايين من أموال المؤسسات الخيرية، من دون أن تتذكر أي شيء على الإطلاق من تلك المبالغ وإلى أين ذهبت».

ذُهل لحظة، لكنه سرعان ما ملأ فترة الصمت القصيرة بحديث لبق عن ذاكرته الانتقائية التي تدقق في الإختيار. كان من البراعة في دفاعه بحيث لم تدرك تيفاني سريعاً أنها وصلت إلى نقطة انتقادية خطيرة، وكان وقت المقابلة قد انتهى فلم تسنح لها الفرصة للخروج منها بنتيجة واضحة.

لقد أفسدت كل شيء كلياً... أخذت تعنف نفسها بيأس. ولعل المشاهدون أطفأوا أجهزة التلفزيون قبل أن يبدي نيل باترسون ذلك التناقض البسيط في كلامه، بوقت طويل. وهزت رأسها لغوردون ويست، فابتسم لها ابتسامة مواسية ضعيفة. كلاهما يعلم أن العرض كان ضعيفاً متخبطاً بشكل هائل.

وعندما عادت تيفاني إلى مكتبها، لتداوي جراحها بالعزلة، شعرت بأنها مجرد هاوية تغطس في مياه لا يحقّ لها الاقتراب منها، كما أنها تحاول قيادة سفينة في تلك المياه المتخبطة.

فتحت باب المكتب وإذا بها تجمد مكانها حين رأت الرجل الواقف عند النافذة. لم تكن بحاجة لإضاءة النور لكي تعرف من هو. لقد جاء جويل، وقبل أن ينتهي الشهر. لم تشأ أن تفكر في السبب. كانت تشعر فقط بحاجتها إليه. أغلقت الباب واستندت إليه وبالرغم عنها، شعرت بالارتياح لرؤيته. أضاءت النور، فالتفت إليها، وكان التوتر بادياً على ملامحه، وعيناه الداكنتان مليئتين بأسئلة قاسية.

أدركت تيفاني على الفور أنه يعلم أي كارثة جلبتها على نفسها.

واكتسحها يأس وخيبة أمل مرّة لأن فشلها هو الذي أحضره إلى هنا، لا الرغبة في رؤيتها.

سألته وهي تحاول جاهدة نسيان تعاستها: «هل تعلم عن حادثة سامنتا ردمان؟».

فأومأ: «ارتجاج بسيط في الدماغ، لحسن الحظ. لكنها ستغيب أسبوعاً على الأقل».

قال هذا مشيراً إلى الحاجة إلى إحضار بديل مناسب.

- يسرّني أن إصابتها ليست سيئة.

ومدت تيفاني يدها إلى جهاز التليفزيون الذي كان مطفأً أثناء غيابها عن المكتب. كانت شاشته البيضاء تحمل معنى الهزيمة لكنها سألته على كل حال:

- هل رأيت العرض؟

فأجاب بسرعة: «رأيت معظمه».

- ما رأيك!

لم تعرف لماذا ألحّت عليه لإبداء رأيه، فهي تعرف الجواب. وجوابه هذا أظهر حكمه على الأمر، فقد أطفأ التلفزيون قبل نهاية العرض.

قال بجمود ولكن من دون خشونة: «حسب ما رأيته، لم تنجحي في الموضوع».

تنهدت بعمق، الحقيقة هي الحقيقة ولا يمكن تجنبها: «أظنّ أنه ما كان لي أن أفعل ذلك».

فقال بهدوء: «لقد أعطيتك السلطة المطلقة، يا تيفاني».

عبّر عبوسها عن أسفها لأنها خذلته.

- لم يكن هناك من بحلّ مكانها. ولكن كان عليّ أن أجد طريقة أخرى. لو أنك هنا...

- لقلت لك استمري في طريقك.

كانت كلماته معزية رغم أن تيفاني لم تتوقف لتحلل السبب: «لئلا

تمسّ بالسلطة التي منحتني إيّاها؟».

فالتوى فمه بسخرية: «بل بالأحرى لأنك أصبحت هاجسي».

- هاجسك؟

- ليس لدي كلمة أفضل، أنا أحتاجك، يا تيفاني، شعرت بذلك منذ البداية، حتى أن ثمن ذلك لم يعد يهمني. حتى ولو انهارت المحطة بأسرها.

شعرت تيفاني بنفسها تحلق من البهجة لكلامه هذا، لكنها خشيت أن يكون ما يعنيه بكلامه أمراً آخر. فهو يعرف أكثر منها عما كان يحدث في المحطة، ولم يكن ذلك جيداً. وهبطت معنوياتها، وشعرت بالتعاسة لفشلها. وبغض النظر عما يريد أن يخبرها جويل به أحسّت بأنها فقدت مصداقيتها من دون شك كمديرة المحطة أثناء مهزلة الليلة على شاشة التلفزيون. لم يكن ثمة مخرج من هذا الوضع بعد أن خذلت الجميع. واغرورقت عيناها بالدموع:

- أظنني... لا أتمتع بالكفاءة اللازمة لهذه الوظيفة، يا جويل. والآن، بعد هذا...

ورفعت يديها بإشارة تنم عن العجز: «لماذا أظن دوماً أن بإمكاني القيام بذلك؟».

وتدفقت الدموع من عينيها، فأسرع إليها يقول بحرارة:

- لا تبكي، الأمر لا يستحق دموعك، أريدك أن تنجحي يا تيفاني. وأنا واثق من أن الجميع هنا يريد لك ذلك.

نظرت إليه بيأس وهو يأخذها بين ذراعيه: «لكنني فشلت».

احتضنها بقوة وحرارة، وضغط رأسها على كتفه برفق وقال من أعماق قلبه:

- أعلم كيف يشعر المُلام لقيامه بعمل من كل قلبه. عمل أردت به إسعاد من تحبينهم. هذا لا شيء، يا تيفاني، فقد لاموني لموت أناس آخرين، وهذا شيء لا يمكن حتى للزمن محوه. أنا أعلم أنك تتمنين إعادة

عقربي الساعة إلى الوراء، فتقومين بالعمل بشكل مختلف، لكن ما فات قد مات. وهذا ليس سوى عرض، يا تيفاني.

رقته... وعطفه... ومودته... تحت أحزان تيفاني بلمح البصر. لم يحضر لينتقدها أو يطردها. جاء فقط ليكون معها عند حاجتها إليه، ودفنت وجهها في عنقه وكتفه... وهمست: «جويل».

فاشتدت ذراعاه حولها:

ـ لا بأس. أريد فقط أن أحتضنك وأخفف عنك.

لم تشأ تيفاني أن تفكر، ومع ذلك خطرت لها بعض الأفكار الضبابية في خضمّ أمواج الأحاسيس التي خدرتها. وكلما اشتد عناق جويل، كلما ازدادت تجاوباً معه. شعرت بقوته تلتف حولها، وبقدرتها تزداد وهناً.

لم يحدث أن لمسها أحد بمثل هذه الرقة. وبشكل ما، شعرت أنها جميلة خلابة، وأن شعرها الطويل أشبه بالحرير، وأن عنقها وكتفيها وذراعيها أنثوية ناعمة رائعة التكوين، وأن خصرها النحيل وُجد لكي تحيط به ذراعاه.

كان انسجام جويل معه كاملاً، مدمراً، سالباً للعقل بحيث لم يخطر في بال تيفاني أن تأتي بأي حركة.

وشعرت فجأة بأحاسيسها تزداد وجسدها بأجمعه ينبض بحساسية لا تصدّق. وتعلقت عيناها بافتتان بخطوط وجهه المتوترة. ورفعت يديها تلامس بأصابعها وجهه، فشعرت بخفقان قلبه العنيف.

أحاط وجهها بيديه، ثم تركه ليحيطها مجدداً بذراعيه ويضمها إليه. ومع ذلك، مجرد التفكير في رقته إلى هذا الحدّ مع النساء اللاتي عرفهن من قبل، جعل تيفاني ترتجف بغيرة عنيفة.

تمتم جويل: «هل تشعرين بالبرد؟»..

فأجابت بصوت أبح وهي تحدث نفسها بأن جويل يحبها: «لا».

كانت تعرف أنه يحبها. ما كان ليلمسها ويحتضنها بهذا الشكل لو أنه لا يحبها. وبينما راحت الأفكار تتجاذبها وتتنازعها، قال جويل برقة

وكأنه أحس بالحيرة في ذهنها:

ـ أنت تعلمين بأنني لن أدعك تذهبين الآن، يا تيفاني.

شعرت تيفاني بأن هذا هو الرجل الذي لطالما انتظرته، الرجل الذي خُلق ليكون رفيق عمرها. وسيمضي وقت طويل قبل أن يكتشفا ذلك حقاً. لكن هذا صحيح.

ـ جويل...

همست بإسمه، وأحاطت رأسه بيديها: «جويل... هناك أشياء كثيرة علينا أن نتحدث عنها...».

ـ نعم...

قال هذا وهو يداعب وجهها مبتسماً، فجاهدت تيفاني لكي تتذكر ماذا كانت تنوي أن تقول له، ثم تخلت عن الجهاد، وصمتت. وضعت تيفاني يديها على قلب جويل شاعرة بخفقاته العنيفة، عند ذلك عرفت اطمئناناً ورضا لم تشعر بمثلهما من قبل... وفكرت بابتهاج.

لن يدعني أذهب... كما أنني لن أدعه يذهب أبداً.

* * *

١١ ـ هاجس من الماضي

حوّلت تيفاني أفكارها على مضض عن جمال هذه اللحظة لتفكّر في المشاكل التي عليها أن تواجهها. الزمن لن يقف مكانه، وما سيحدث غداً لا يمكن تجاهله.

لكن بدا أن جويل لم يشأ التفكير سوى في جمال الحاضر: «يمكنك أن تتحدثي معي بهذا الشأن في أي وقت تشائين».

قال هذا وهو يضحك مبتهجاً. لم يحدث قط أن بدا مرتاحاً بهذا الشكل من قبل.

ـ ماذا يمكنني فعله لأجلك؟ أخبريني، وسأبذل جهدي لأؤمّنه لك.

بعث الإتقاد العميق في صوته الدفء في فؤادها، فمدت يدها تلامس خده:

ـ لا شيء يا جويل. لا أريدك أن تفعل شيئاً لأجلي، لأنك قد فعلت الكثير.

أمسك راحة يدها، جاذباً أصابعها إلى فمه، فخفق قلبها مجدداً، وقالت بشيء من الإرتعاش:

ـ جويل، هناك أشياء علينا أن نقررها. ماذا عليّ أن أفعل مثلاً لأحل الورطة التي أوقعت نفسي فيها خلال العرض الأخير؟

فأجاب وكأن ذلك أسهل شيء في العالم:

ـ ما من مشكلة، أحضري من يحل مكان سامنتا ريثما تعود. لديك الغد بطوله لكي تفعلي ذلك، أعرضي أجراً عالياً، فتتمكنين من شراء أي

شيء.

تكلّم بذلك الصوت العميق الساخر الذي تتمنى تيفاني لو تمحوه.

لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل، على كل حال، فهي لم تنسى ما قاله جويل عن ترك المحطة التلفزيونية. لم تكن تريده أن يدفع لها أي أجر، لأنّ فشلها أثّر على أشخاص غيرها، وقالت بحزم:

ـ لا يمكنني أن أبقى مديرة تنفيذية، عليّ أن أستقيل.

رفع جويل رأسه مقطباً جبينه بحدة بعد أن رآها تتكلم بجد.

ـ هذا ليس ضرورياً يا تيفاني، لقد رأيت تقييم نسبة المشاهدين لهذا الأسبوع، وبعضها عظيم. ففي برامج عدة، يبدو واضحاً أنك ضربت على وتر حساس عند المشاهدين لم يضرب عليه أحد من قبل. لكن بعض المبادرات الجديدة لم تنجح كما كنت تأملين. وعلى العموم، عملنا الآن أفضل.

سألته بلهفة، آملة ألاّ تكون الأمور بالسوء الذي تبدو عليه: «إلى أي حد هو أفضل؟».

ـ بقليل.

فعبست:

ـ أنت تعني أن بعض البرامج قد أخفقت، مثلي أنا الليلة.

ـ نعم، ولكن هناك برامج أخرى ناجحة تماماً.

فقالت بكآبة: «لقد فشلت».

بدا واضحاً أن جويل يحاول أن يصوّر الأمور أقل سوءاً، من أجلها هي. لكن من العبث الاختباء وراء إصبعها وتابعت: «وكذلك سببت الفشل للجميع، لك، لتفسي، للمحطة التلفزيونية...».

فأنكر بحرارة: «لا».

ووضع إصبعه على فمها، يسكتها وهو يقول بلهجة مقنعة: «علينا أن نكون إيجابيين وننظر إلى إنجازاتك. يمكننا أن نتفادى المشاكل بسهولة. لقد نجحتِ في تحطيم القبضة الخانقة لرجال الإدارة العاديين التي كانت

المحطة تعاني منها، ورسمت الطريق إلى المستقبل. ركزت على ما نجح، وأعدت النظر في ما لم ينجح».

أصغت تيفاني، وعندما أحس بأنها لا توافقه تماماً، استعمل مواهبه كلها لكي يتفادى المزيد من الحديث عن الفشل: «تيفاني، ما فعلته أثمن بكثير من ارتفاع في نسبة المشاهدين. لقد فتحت الطرق التي ينبغي سلوكها، وأثبتّ بشكل قاطع أن بعض البرامج فاشل تماماً. سياستك القائمة على (إصنع أو خرّب) هي ما كانت المحطة بحاجة إليه لكي تنهض من وهدة الفتور واللامبالاة. كل ما ينقص الآن هو الوقت لتعزيز المكاسب التي حققتها. يمكنك أن تتابعي من هنا، بشكل أفضل من قبل. هذه هي النتيجة النهائية لما فعلته، وهذا ليس إخفاقاً، يا تيفاني، بل نجاحاً».

بدا لها أن المغامرة التي قامت بها، لها ما يبررها، ولم تشعر بكل ذلك الأسى بالنسبة إلى فشلها. فهي على الأقل، لم تخذل جويل، وسألته مترددة غافلة عما يريده منها بالضبط: «هل تريدني أن أتابع العمل؟».

التمعت عيناه لحظة، ثم تحوّل وميضهما إلى حسرة دافئة: «إذا كان هذا ما تريدينه، يا تيفاني. أظن بإمكاني أن أبقى بعيداً عنك، وإن كنت سأشتاق إليك».

في تلك اللحظة، تساءلت تيفاني عما إذا سيشتاق إليها دوماً وعمّا إذا ستتمكن من إضاءة كهوف أعماقه المظلمة، لأن هناك الكثير لا تعرفه عن جويل فيبر.

الشوق هو البداية، لكن تيفاني تريد أكثر من هذا في علاقتهما، ومع ذلك لم تكن واثقة من الحصول على ما تريده. إنه رجل اختارته لنفسها، ذو اكتفاء ذاتي ومنطوٍ على نفسه كما يبدو. لكنها لن تتوقع منه أن يبقى بهذا الشكل، لأن ما بينهما أفضل وعليها أن تؤمن بذلك.

ومرة أخرى، عادت بذهنها إلى أكثر المواضيع إلحاحاً وهو وضعها في المحطة التلفزيونية. فقالت بحزم: «أنا أقدّر كل ما قلته يا جويل عما

أُنجز، لكنني لا أستطيع البقاء هنا».

فقطب جبينه:

ـ أبسبب عرض هذه الليلة؟ إنها غلطة واحدة فقط يا تيفاني.

ـ غلطة واحدة أمر كثير، لا يمكنني أن أتوقع أي ثقة من الموظفين بعد اليوم. من الأفضل أن تبحث عن مدير جديد. شخص كفؤ يستطيع متابعة الطريق.

ـ سأساندك تماماً يا تيفاني.

فهزت رأسها:

ـ أنت بحاجة إلى شخص مبدع جريء، مليء بالحيوية لا يخاف ارتكاب الأخطاء وعظيم بحيث يتخطاها. أما ما فعلته أنا فقد كان عملاً دون خبرة أو مهارة.

ـ وسأبقى أساندك.

ـ لا، يا جويل. هذا خطأ.

فسألها وعيناه تتفحصانها:

ـ ألن تغيري رأيك؟.

فأجابت بإلحاح:

ـ هكذا أفضل.

وبدا عليه الارتياح وابتسم بسرور:

ـ أنا مسرور لأنك لا تريدين ذلك، لأننا لن نضطر لأن نكون متحفظين بالنسبة لأي شخص. تعالي معي إلى جزيرة ليجر يا تيفاني.

أوشكت أن توافق، لكنه لم يكن يعرض عليها الزواج، فمنعها ذلك من الموافقة. لقد صدرت عنه تصرفات غريبة لم تفهمها، ولم يفسرها قط. لم تفهم تماماً ذلك المنطق الباطني الذي جعل ذاك السؤال يخطر في بالها. ولكن، فجأة، بدا جوابه هاماً للغاية.

ـ أخبرني...

ابتدأت بالكلام، ثم راحت تداعب وجهه بشكل غريزي وتطمئنه إلى

شعورها نحوه، فشجعها على الكلام باسماً:

- كل ما تريدينه.

ركزت عينيها على عينيه بقوة، طالبة الحقيقة من دون أي مواربة: «أخبرني من مات ليلة العاصفة فوقع اللوم عليك...؟».

تلاشت ابتسامته، وجمد بشكل غريب. وبادلها التحديق بثبات، ولكنها لم ترَ شيئاً في ظلمة عينيه... لا شيء سوى الظلمة.

شعرت تيفاني بقشعريرة خوف تغمرها، فحبست أنفاسها لا تدري ما سيحدث... كانت تعرف فقط أنها وضعت إصبعها على جرح لم يلتئم، على سر لم يكشفه لأحد... ولا يريد أن يكشفه. ومع ذلك، إذا منعها من دخول ذلك المكان الخفي...

سألها بصوت جامد خالٍ من المشاعر: «هل هذا مهم الآن؟».

- لا أستطيع أن أجيبك.. عليك أن تخبرني...

قالت هذا بإصرار هادىء رغم الغليان في داخلها، وشعرت بنفوره من ذلك... أحست بصراع في داخله، وعندما أجابها، بدا وكأن كل كلمة نطقها مغلّفة بألم بالغ:

- كان اسمها ماري - بيث ماكاولي.

كانت تيفاني متلهفة لأن يشاركها سره هذا. لكن الذكرى التي اعتصرت قلبه بعنف جعلتها تتمنى لو أنها لم تلح عليه بذلك. ولكن، بعد أن تكلم الآن، لم تشأ أن تدع الأمر: «هل ذهبت معك تلك الليلة على السفينة؟».

- نعم.

- مع جدك؟.

- نعم.

دفعها اختصاره للأجوبة لتتوسع في الأسئلة فسألته وقد جفّ حلقها: «هل كنت تحبها، يا جويل؟».

- نعم.

لم يكن من شك أو التباس في جوابه... ولا حتى إيحاء منه بأنه كان صغيراً على الحب... وإنما كان يسرد حادثة وقعت... لقد خرج مع ماري بيث ليواجها الموت معاً، لكنه عاد وحده، فلاموه على ذلك.

لم تكن تيفاني تريد أن تطرح السؤال، لكن عليها أن تعلم. وكانت متلهفة إلى أن يبدد جوابه الشك الذي ثار في نفسها، لكن القنوط لفّ قلبها وهي تقول مرغمة: «هل كانت عينا «ماري بيث» بلون البحر؟».

رفع رأسه بدهشة وكأنما انتزعه سؤالها من الذكريات بلمسة دقيقة: «كيف عرفت ذلك؟».

بدا واضحاً أنه نسي ما قاله لها في لقائهما الأول. (تباً لتلك العينين! أتعلمين ما تفعلينه بي؟) لكن تيفاني لم تنس. كان ذلك حين عانقها وكأنه يريد أن يغرق فيها، وقد تملكته ذكرى تلك الفتاة التي أحبها ثم فقدها.

اخترقت عيناه عينيها بارتياب وصلابة: «هل ألححت على غاريت العجوز ليخبرك بكل شيء؟».

- ليس تماماً، لم يأتِ قط على ذكر أي فتاة.

توترت شفتا جويل، ولمع بريق مرارة في عينيه. ثم، وكأنه استعاد نفسه من الماضي، راغباً في التركيز على الحاضر، تحوّلت المرارة إلى اهتمام وحذر: «هل يشكّل ذلك أي فرق بيننا؟».

فكّرت تيفاني وهي تحاول حبس دموعها في أن «ماري بيث» ميتة، ماتت وانتهت منذ عشرين عاماً... ومن المؤكد أن جويل تخلى عن ذكراها عندما قرر مطاردتها. كانت ماري بيث شبح الماضي بينما تيفاني امرأة حقيقية من لحم ودم بين ذراعيه. وهي الآن المرأة التي اختارها لتشاركه حياته.

ولكن إلى متى؟ لم تكن تيفاني تعلم. وجويل لم يعدها بشيء، قد يحصل ذلك أو لا يحصل. لقد أقسمت على ألاّ تعيش هذا الوضع مرة أخرى، رغم لهفتها إلى البقاء بجانبه... ولم تستطع أن تتخلص تماماً من شبح ماري بيث.

- تيفاني؟

أعاد التوتر البسيط في صوت جويل انتباهها إليه بحدة، وفتحت عينيها فرأته ينظر إليها مقطباً: «لست واثقة من أن ما تقترحه فكرة جيدة، ليس الآن على أيّ حال».

فازداد تقطيباً:

- سأعتني بك، يا تيفاني، قولي ما تريدينه وأنا أعطيه لك. سنذهب إلى أي مكان تحبينه، ونفعل كل ما ترغبين فيه...

- ليس هذا هو الأمر، يا جويل.

قالت هذا باحتجاج وقد آلمها أن يلجأ إلى الأمور المادية لاكتساب قلبها: «أنا بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير. من المؤكد أن نيريدا بيلامي تلك ستنقض علينا فجأة. وإذا لم ينجح الأمر... لا أريد أن أستعجل في الالتزام، ثم أجد لاحقاً أن الأمر لم يكن سوى سراب سرعان ما تبدّد».

فقال ساخراً: «وقت؟ كم من الوقت تريدين».

- آسفة، فأنا لا أعلم. لا أستطيع الذهاب معك حالياً يا جويل. هذا مبكر جداً بالنسبة إلي.

قالت هذا بمشاعر ممزقة بين رغبتها في البقاء معه، وحاجتها إلى فصل الحاضر عن الماضي. لو أن ماري بيث لم تكن موجودة... لو أن لون عينيها لا يماثل لون عيني تيفاني.

- وأنا أيضاً آسف. يبدو أن علي أن أنتظر مزيداً من الوقت.

ثم عانقها بعاطفة محمومة ذكرتها بما بينهما: «غيّري رأيك، ضعي الشروط التي تريدينها».

قال هذا بلطف وإغراء، فأجابت وهي لا تدري ما إذا كانت حمقاء تماماً: «لا... أرجوك، ليس حالياً... يا جويل».

لم تحتمل أن تطرح المزيد من الاسئلة عن الحب الذي فقده، ومع ذلك عليها أن تعرف المزيد. غاريت... فكرت فيه بلهفة. ستسأل غاريت غداً، فقد أشار جويل إلى أن الرجل العجوز يعلم. طبعاً لا بد أن غاريت

يعلم. واتضح لتيفاني فجأة أن كل صيادي هاڤن بي المسنين يعلمون. لقد لاموا جويل لموت ماري بيث، وهذا ما جعله يكره القرية.

لم يكن الماضي ميتاً بالنسبة إلى غاريت أيضاً، ولم يكن الزمن قد محا الكراهية. لقد شجعها وساعدها على اللجوء إلى جويل بسبب لون عينيها. استعملها كلعنة من الماضي... لكي تذكره بتلك... وتصبح هاجسه.

وفعلاً هذا ما قاله لها جويل... لقد أصبحت هاجسه، ليس حباً بل هاجساً!

وعلى الرغم من انزعاجها مما اكتشفته، بقي الإغراء في أن تدع كل هذا وتذهب معه قوياً إلى حد أنها حاولت تجنب عيني جويل. ربما ستتمكن غداً من التفكير بوضوح، غداً، بعد أن ترغم غاريت على إخبارها بكل شيء. لقد تحملت كثيراً من الضغط وكثيراً من الأشياء... وهذا كثير عليها الليلة.

جلس جويل وأحنى كتفيه ورأسه. بدا تعيساً ووحيداً لكنه سرعان ما تمالك نفسه، ليبدو مرة أخرى، شخصية حازمة لا تُهزم.

لكن تيفاني لم تستطع أن تنفض عنها صورته الأولى المؤلمة للغاية، فهفا قلبها إليه: «جويل، أنت أغرقتني بفضلك، فهل هناك ما يمكنني أن أفعله لأجلك؟».

فلوى فمه متفكهاً: «نعم، هناك شيء».

فأجفلت: «أعني باستثناء العودة معك إلى جزيرة ليجر».

- باستثناء ذلك، يمكنك أن تحضري إلي زاكاري لي.

نظرت إليه بحيرة، فقال يذكرها:

- أريد مديراً للمحطة، حاولت أن أحصل عليه منذ زمن، لكنه لم يهتم بذلك. ولكن إذا تحدثت معه يا تيفاني، سيصغي إليك. أخبريه أن بإمكانه أن ينص العقد حسب رغبته. وأنا سأسانده في كل ما يريد أن يفعل وإلى النهاية. وإذا جدّ بما يكفي، يمكننا توسيع أعمالنا لنتشيء

www.elromancia.com

سلسلة من المحطات الدولية. ويمكنه أن يرأسها كلها، ويجعل نفسه نجماً متفوقاً في عالم التلفزيون، إذا كان لديه الطاقة والنشاط لذلك. وهذا عائد إليه، إن الوظيفة هنا حاضرة لأجله لكي يصنع المستقبل الذي يمكن أن يمنحه كل ما يريده من مهنته.

كان سخاء هذا العرض لا يصدّق. لكن تيفاني لم تكن تشك في أن جويل يعني ما يقول، بضربة واحدة جريئة حلّ كل المشكلات التي أثارتها هي في المحطة، وذلك بإحضاره أخيها المحترف والمحترم في مجاله. وهكذا يؤكد جويل أن لا أحد هنا سيدفع ثمن فشلها الذريع، وفي الوقت نفسه منحت «زاكاري لي» فرصة العمر.

أحدث فيض مشاعرها غصة في حلقها لم يكن سهلاً التغلب عليها، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تحاول الاقتراب من جويل. وضعت يديها على صدره الصلب الدافىء، فغطى يديها بيديه يحبسهما على صدره: «تيفاني...».

كان صوته الأجش يفصح عن مشاعر عميقة عندما غاصت عيناه في عينيها، فقالت وهي ترتجف.

ـ أردت أن أشكرك فقط.

فقال بصوت خشن:

ـ لا حاجة لذلك. أنا الرابح إذا حصلت على زاكاري لي.

صححت له تيفاني كلامه بحرارة: «إنها أفضل هدية أقدمها لأخي وأنت تساعدني لكي أقدمها إليه».

ثم أضافت: «سأتصل الليلة بزاكاري لي».

ـ إفعلي ذلك.

أجابها وهو يخرج من جيب قميصه بطاقة أعطاها إيّاها: «يمكنه الاتصال بي على هذا الرقم».

والتقت عيناه بعينيها ببريق يكاد لا يُخفى: «ويمكنك أنت ذلك يا تيفاني وفي أي وقت».

أومأت وهي تخفض بصرها، وهمست تطمئنه بصوت أجش:

ـ سأتصل بك قريباً جداً، تصبح على خير يا جويل.

رغم ابتعاده عنها، شعرت تيفاني في عمق أعماقها أن هذا ليس فراقاً بينهما. ففي هذه الليلة امتزجت حياتهما وتلاقى درباهما، وبالرغم من المسافة التي تفصلهما، من المستحيل بعد اليوم أن يتجاهلا أو ينسيا بعضهما البعض.

* * *

www.elromancia.com

١٢ ـ وسط العاصفة

حالما ابتعد السائق «بيتون» بالسيارة «البنتلي» عن محطة التلفزيون، تناولت تيفاني الهاتف لتتصل بزاكاري لي. إذا قبل أخوها عرض جويل، وهذا مؤكد، من المهم أن يستلم مهامه بسرعة. وجدته، لحسن الحظ في البيت. وأصغى إليها زاكاري لي بحذر وهو يزن كل ما أخبرته به قبل أن يقول رأيه:

ـ تيفاني، أنا لا أريدك أن تنحني أو تتخلي عن مكانك لشخص آخر. لديك مستقبل كبير في التلفزيون، ويبدو لي أنك تخطئين بتقديم استقالتك الآن.

وأضاف بصوت يفيض رقة وتطميناً: «الكرة الآن في ملعبك. لديك الآن مهنة كبرى مفتوحة أمامك، فلا تدعيها تفلت منك».

ابتسمت تيفاني لأنه من عادة زاكاري لي أن يهتم بمستقبلها قبل مستقبله، فهو لا يقبل عملاً أبداً إذا ظن أنها تحن إليه خفية.

ـ أنا لا أريد هذا العرض، حقاً لا أريده. أرجوك، اتصل بجويل وتحدث إليه. إنه عمل نكاد لا نجده إلاّ في الأحلام، يا زاكاري لي. حديث جويل عن هذا العمل يجعله مستحيلاً عليّ، أنا أستمتع بما أقوم به في محطة التلفزيون لكنها ليست حياتي، ولا أنوي مطلقاً أن أجعلها كذلك. ولهذا إذا كنت سترفض هذا العرض ولاء لي، فسأغضب منك... سأغضب بشكل لم أعرف مثله في حياتي، وقد لا أتحدث إليك

أبداً بعد ذلك.

ضحك... كانت ضحكة هادئة حلوة تدفىء قلبها: «حسناً، لا يمكن أن أقبل بحدوث ذلك. سأتصل بفيبر. ولكنّ، يا تيفاني...».

واختفى الهزل من صوته وهو يقول بجد بالغ: «في الحقيقة، لا بد أنك تعلمين أن هذا العرض غير عادي على الإطلاق. لقد سبق واجتمعت بجويل فيبر، وهذا ليس نوع العروض الذي يقدمه، وساحيني لهذا القول. لكن لديه غاية، وهذه المرة أنا لا أصدق أن هدفه هو الحصول عليّ، لذا من الأفضل أن تخبريني عن الوضع الحقيقي بينكما».

لم يكن وضعاً يسهل وصفه، وشعرت تيفاني بصعوبة في التعبير عنه بالكلمات. لكن زاكاري لم يهتم بترددها فتابع يقول: «أنا أعلم أن هذا ليس من شأني، ولكن إذا لم تخبريني فسأسأله. وإذا لم يعجبني جوابه، فربما أغضب. قد أسأله وأغضب على أيّ حال، لكنني أريد أن أسمعك أولاً».

سمعت خلف كل كلمة نطقها صوتاً خافتاً ينبىء عن رغبة حقيقية وقوية في حمايتها، فتنهدت. لقد أصبحت كبيرة بما يكفي لتحمي نفسها، وفكرة أن زاكاري لي يغضب، جعلتها تبتسم، إذ لم يكن هذا من طبعه على الإطلاق.

ولكنها من ناحية أخرى، تعرف أخاها الرقيق جيداً. وتدرك أنه قادر تماماً على أن يلقي بعرض جويل هذا في وجهه ويحشو به فمه إذا ما فكر في أنه اشترى تيفاني أو تحايل عليها أو أغراها به.

وخطر لها فجأة قول جويل الساخر: (إعرضي أجراً مرتفعاً، فتشتري أي شخص).

لعل هذا ما قصده جويل، لكن تيفاني تعلم أنه لم يشترها بذلك. وسألته بلطف:

ـ زاكاري لي. ألم تتساءل قط كيف حدث أن أمي وأبي ذهبا إلى «نيو أورليانز» في وقت معين بالذات، وبهذا تغيرت حياتك منذ تلك اللحظة؟

وساد صمت قصير.

ـ ما الذي تريدين قوله، يا تيفاني؟.

ـ أقصد أن هناك أشياء لا يمكن تفسيرها. إنها فقط تحدث سواء للخير أم للشر، وأنا وصلت إلى نقطة اللاعودة. ولا شيء تقوله أو تفعله يعيد الأمر إلى الوراء، يا زاكاري لي. أريدك أن تقبل عرض جويل، ولا أظن أن هناك خفايا في الموضوع. في النهاية، أنا أفعل دوماً ما يناسبني.

إذا كان جويل قد قدم هذا العرض بغرض الاحتفاظ بها، فعرضه من دون طائل، ورباطهما أقوى من أن يتحطم. كما أنه أثبت لها أنه رجل يلتزم بكلمته ويفي بعهوده. فتنهد زاكاري بعمق:

ـ أختي... لا بأس. سأتحدث معه، ومن مصلحته أن يتصرف بشكل لائق معك، وأن يعتني بك بشكل جيد أو... أو أحطم وجهه.

تجاهلت تعليقه الأخير وأعطته رقم هاتف جويل: «إسترح، يا زاكاري لي. ثمة ما أعرفه وهو أن بإمكانك أن تثق بأن جويل فيبر يفي بوعوده كلها. لذا لا تقلق».

قالت هذا بحزم، ثم أقفلت الخط.

كان لدى تيفاني الكثير لتقلق بشأنه. لكن مجرد حديثها مع أخيها أوضح لها بعض الأمور. لن تدع الشكوك والمخاوف تشوّه علاقتها بجويل. فعلاقتهما أفضل من كل ما عاشته من قبل، وهي تشك في أن يتملكها يوماً شعور مماثل نحو أي رجل آخر. غداً ستسأل غاريت عن ماري بيث ماكاولي، وتعلم حقيقة ما حدث ليلة العاصفة، فتعلم عندئذٍ المشكلة التي تواجهها أو على الأقل ستكون لديها فكرة أفضل.

ـ المعذرة، يا آنسة جايمس...

أجفلت تيفاني إزاء محاولة السائق المهذبة جذب انتباهها، ونظرت إلى مرآة السيارة فرأت نظرة اهتمام على وجهه:

ـ آسفة، يا بيتون. كنت مشغولة البال بأمور أخرى بحيث... حسناً، أظنك سمعتني أقول إنني أنهيت عملي في المحطة التلفزيونية. أنا

لست آسفة على ذلك، لكن هذا يعني أن هذا لقاؤنا الأخير، وأنا أشكرك لأنك كنت صبوراً معي ولطيفاً للغاية.

ـ كان عملي معك ساراً للغاية، يا آنسة جايمس. لكن أردت أن أقول، إذا عذرت حريتي هذه، فأنا لم أستطع إلاّ أن أسمع ما قلته عبر الهاتف عن المقابلة هذه الليلة، أظنك رأيت الأمور بطريقتك. ولكن بحسب رأيي، لقد أخطأت في ذلك لأنك جعلت ذلك السياسي يخطىء ويزل لسانه. وقد استغرق إدراكي لما فعلته بعض الوقت في الحقيقة. ولكن عندما أخذنا نجمع الأمور... رأت زوجتي أن هذه المقابلة هي أذكى ما رأته على شاشة التلفزيون.

ـ هذا لطف كبير منها، أخبرها من فضلك... بأنني شاكرة جداً.

وأخذت تيفاني تفكر في أنه لو كان هناك ملايين المشاهدين من أمثال السيدة بيتون لنجحت نجاحاً ساحقاً. وأخذ بيتون يضحك بهدوء، متذكراً:

ـ أراهن على أن باترسون يتمنى لو أن الأرض انشقّت وابتلعته قبل أن يتكلم عن المؤسسات الخيرية. من المؤكد أنك أحرجته في هذا الموضوع يا آنسة جايمس، جمّدته تماماً. وهل يقبل العقل أن رجلاً يتذكر كل التفاصيل الصغيرة كالأزرار ثم ينسى معاملات بملايين الدولارات؟

لوت تيفاني شفتيها مبتسمة بسخرية: «شكراً، يا بيتون. لكنني لا أظن أن مشاهدين كثيرين، عداك أنت وزوجتك، بقوا لمتابعة المقابلة حينذاك. إذ لم تكن مسلية».

ـ حسناً، لقد أخذ يناقشك في كل شيء. وكان مغروراً، ومن البراعة والمكر بحيث أشعرك بالغثيان ولكن هذا ما جعل الأمر حسناً للغاية حين زل لسانه. أقول لك، يا آنسة جايمس، إنني ما زلت مسروراً بذلك منذ ذلك الحين. أفكر دوماً في منظر وجهه حين أدرك أنه أدان نفسه، لم أنتبه في الحقيقة على الفور، وكذلك زوجتي.

وتملك تيفاني الشك في أن يتنبّه للأمر العديد من المشاهدين. هي

نفسها لم تنتبه لذلك إلا بعد وقت طويل، وتابع بيتون متلذذاً: «ولكن كلما فكرت في المقابلة تلك، زاد إعجابي بها، ويا ليتهم يعيدون عرضها مرة أخرى. فبعد أن عرفنا ما سيقوله في النهاية، سيبدو ذلك الكلام الممل الذي جاء في البداية، أكثر...».

وأخذ بيتون يفكر في الكلمة المناسبة فقالت تساعده بأمل: «أكثر توجيهاً إلى الهدف».

قال راضياً: «هذا صحيح تماماً، يا آنسة جايمس. هذا هو بالضبط».

(كل ذلك الكلام الممل) كان هذا هو الوصف الصحيح لتلك المقابلة. وفكرت تيفاني في أن الولاء دفع بيتون إلى محاولة أن يشعرها بأنها أدّت عملاً أفضل مما قامت به. وابتسمت له بحرارة:

- ليتني تكلمت أكثر من ذلك عن ذاكرته، لكنني مسرورة لاستمتاعك بالمقابلة، يا بيتون.

- ارتاحي الآن فقط، يا آنسة جايمس، وسأوصلك إلى بيتك آمنة.

وابتسم لها في المرآة.

- شكراً يا بيتون، واشكر زوجتك عني.

أصبح عدد المشاهدين الذين تابعوا المقابلة حتى نهايتها أربعة عندما وصلت تيفاني إلى بيتها لتجد كارول مستيقظة. ورأت أختها وابنها ألان أنها أطالت الحبل لنيل باترسون لكي يشنق نفسه.

وفي الصباح التالي أيقظتها كارول من نومها عند الساعة السادسة تقريباً، لأن زاكاري لي يصر على التحدث إليها. خشيت تيفاني أن يكون شجاراً ما قد حصل بينه وبين جويل، فأمسكت السمّاعة بسرعة، وقالت:

- هل من خطب ما؟

سألته بسرعة حتى قبل أن تلقي عليه التحية.

- ما هو شعور المرء الذي يصبح حديث الساعة بين ليلة وضحاها؟

- ما الذي تتحدث عنه؟

- لقد قبضت الشرطة على باترسون. وقد وُجّه إليه الإتهام رسمياً. سيحققون معه بشأن الحساب! وهذا يجعلك... مثيرة!.

وضحك بصوت خافت جن قالت: «لا...».

- بلى! الليلة الماضية، وضعتِ المسمار الأخير في نعش مصداقيته، يا تيفاني. مقابلتك معه حديث الساعة في البلد.

عجزت عن الكلام، وشعرت كمحكوم عليه بالإعدام أطلق سراحه بعد أن وُضع حبل المشنقة حول عنقه.

- فكرت في الإتصال بك لأخبرك بأنني لن أتصل بجويل فيبر.

قال زاكاري لي هذا بلهجة ذات معنى، لكنها احتجّت: «لكن هذا لا يغير في الأمر شيئاً!».

- بل يغيّر كل شيء، يا تيفاني، أنت الآن في اللحظة الفاصلة من حياتك التي توصلك إلى القمة.

- أنا لا أريد الوصول إلى القمة. كان ذلك مجرد حظ، أنا مسرورة لأنني لم أترك المحطة بصفتي فاشلة. لكنني انتهيت منها، وأنت تعهدت بأن تتحدث مع جويل.

- لا تجادليني يا تيفاني. ليس هذا من الولاء العائلي، ما اتفقنا عليه الليلة الماضية قد ألغي!.

- بل ما زال سارياً، وأنا غير مهتمة بهذا العمل يا زاكاري لي، لدي ما هو أهم.

- مثل ماذا؟

- شيء من الحياة، شيء من الحب!.

ساد الصمت، ثم قال ببطء: «أرجو أنك تعرفين ما تفعلينه، يا أختي».

- إذا لم تقبل بهذا العمل، يا زاكاري لي، فسيذهب هباء.

- وأنا أكره أن يذهب هباء...

وتنهد ثم أضاف: «لا بأس، إنما بشرط».

ـ ما هو؟

ـ إذا احتجت إلى أي نصيحة، سآتي إليك لآخذها.

فضحكت بارتياح:

ـ متى شئت أيها الأحمق الكبير.

فقال ضاحكاً: «إذا كانت هذه هي القضية، سأتصل بجويل فيبر الآن».

ـ وقد حان الوقت لذلك.

ـ وكما تعلمين، التوقيت في هذا العمل هو الأهم. انتبهي، يا تيفاني، فجميع صحفيي البلاد، بمن فيهم صديقتك نيريدا، سيكونون في أثرك اليوم. إمنحيني وقتاً لأنظم الأمور. وإذا لم أجعل من أختي عنواناً رئيسياً، فأنا لا أستحق أن أكون في التلفزيون. أختفي عن الأنظار طوال اليوم، وعندما اتصل بك، سيكون ذلك لأجري معك مقابلة خاصة غير عادية. هل يمكنك القيام بذلك؟

ـ بالتأكيد. فهذا يلائم ما قررته. سأقنع غاريت بأن يأخذني في سفينته. أترك لي خبراً مع ألان، يمكنه الإتصال بنا بالراديو.

ـ حسناً، فلننتقل إلى العمل الآن، يا أختي.

إنقطع الاتصال فجأة، فوضعت السماعة ببطء، متسائلة عما إذا كانت قد ارتكبت خطأً فادحاً بإخبارها زاكاري لي بأنها ستخرج مع غاريت في سفينته. إذا أخبر جويل أين ستكون اليوم، فلن يعجبه هذا، لأن الرجلان لا يتفقان كثيراً على ما يبدو. لكن تيفاني كانت مصممة الآن على كشف حقيقة تلك المأساة القديمة. وإذا رفض جويل أن يساعدها، فعليها أن تجد طريقة أخرى. وإذا لم يشأ غاريت، هو أيضاً، أن يساعدها، فستقول له إنه مدين لها بذلك.

عندما أوضحت لألان ما يحدث، قطب الفتى حاجبيه:

ـ لا أظن ذهابك اليوم فكرة سديدة، يا خالتي، إذ من المحتمل أن

تهب عاصفة.

فطمأنته بقولها:

ـ أنا واثقة من أن غاريت يعلم متى يعود يا آلان.

لكن الفتى لم يقتنع، وأخيراً قال:

ـ سأبقى إذن على اتصال باللاسلكي.

ولسوء الحظ، كان غاريت قد ارتبط بعمل لهذا النهار، وبما أن عدد السياح خفيف فقد وعد غلامين بأخذها إلى عرض البحر للصيد. ورحب طبعاً بمجيء تيفاني معهم.

لكنه أنذرها بأن البحر سيكون هائجاً اليوم. لذا من المحتمل ألاّ يتمكنوا من البقاء في البحر مدة أطول من بعد الظهر.

كان الطقس آخر ما فكرت فيه تيفاني، وفي مطلق الأحوال جعل حضور الغلامين الحديث مع غاريت مستحيلاً. طلبا منه أن يروي لهم قصصاً عن صيد السمك، ثم انشغل بإرشادهما إلى أحسن الطرق لإصلاح شبكات الصيد، فلم تحظ بدقيقة انفراد واحدة معه. وفي النهاية، أذعنت، من دون تذمر، إلى الانتظار حتى العودة إلى البيت.

اتصل ألان بهم عند الظهر، لشدة قلقه على سلامتهم، فقد كانت درجة الحرارة تنخفض والرياح تشتد والبحر هائجاً إلى حد أن الصيد أصبح معاناة أكثر منه تحدياً مثيراً. ومع ذلك، كره الغلامان أن يذعنا إلى أن أخذت الأمواج تعلو ليبلغ ارتفاعها متراً. عند ذلك دعا غاريت إلى التوقف بحزم، ثم استدار بالمركب عائداً. وعندما اقتربا من هاڤن بي، كان البحر قد وصل إلى علوّ بالغ. لكن سفينة الصيد شقته بثبات، ولم يتملك تيفاني شعور حقيقي بالخوف.

اتصل ألان مستفهماً عن وضعهم، ثم نقل إليهم نداء استغاثة التقطه من بحار وحيد من نيوزيلاندا، اقتلعت ساريته الريح، ويخته الصغير تتلاعب به الأمواج.

كانوا جميعاً في غرفة القيادة، وسمعوا التفاصيل فحدقوا في غاريت

مصعوقين وهو يخبر ألان بهدوء بأن سفينته لا يمكن أن تعود في محاولة إنقاذ. وعندما أنهى غاريت المكالمة اللاسلكية، سأله أحد الغلامين محتجاً بارتباك:

ـ لماذا لا نذهب لإنقاذه، يا غاريت ماكوغ؟

قال الغلام الآخر ضارعاً والفزع يتملكه لفكرة ترك رجل يغرق: «يمكننا القيام بذلك».

استدار الصياد العجوز يواجههما وملامحه غبراء عاصفة.

ـ لن أجازف بثلاثة أرواح من أجل روح واحدة. الرجل الذي يذهب وحده لاجتياز البحر يعلم أنه يجازف بحياته، إنها مسؤوليته. لقد أحضرتكما للصيد وعلي أن أعيدكما إلى بينكما بسلام. هذه هي مسؤوليتي، وأنا لن أجيب على أي شيء آخر.

ـ ولكن... مركبه يغرق!.

ـ أليس هناك قوانين للبحر؟

غضب غاريت بشكل ملحوظ للمضمون الساخر لهذا التعليق: «هل نسيتما أن معنا امرأة؟ إننا عائدون إلى البلدة».

صمت الغلامان، لكنهما نظرا إلى تيفاني بتضرّع، غير مشاركين الرجل العجوز شهامة العالم القديم التي تفرض حماية المرأة بأي ثمن. وحدها تيفاني أدركت أن موقف غاريت يعود إلى مأساة وقعت منذ عشرين عاماً، ومع ذلك لم تستطع أن تتغاضى عن قراره هذا، هي أيضاً. فقالت له: «غاريت... علينا أن نحاول».

فقال بعنف: «لا! لن أفعل هذا!».

فقالت تيفاني:

ـ لا أريد أن يتحمل ضميري موت ذلك الرجل. علينا أن ننقذه، وإلاّ لن يهدأ لنا بال ولن نعيش بسلام.

ـ أنت ستعيشين على الأقل، والعودة الآن جنون! البحر هائج وهو خطر جداً خصوصاً لامرأة. لماذا أجازف بحياتك وحياة هذين الغلامين

لأن رجلاً أحمق اختار المخاطرة بحياته؟

وبدت في عينيه لمحة من الألم العنيف قبل أن يشيح بوجهه فجأة. ونظر الغلامان بقنوط إلى تيفاني يدعوانها إلى مزيد من الجدل، عاجزين عن قبول قرار غاريت. وأمضت دقائق في استشارة عقلها، لأجل الغلامين على الأخص، لكنها لم تشعر بصوابية إغفال طلب الاستغاثة حتى ولو تعرضت حياتهم للخطر. فقالت بهدوء:

ـ لا يحق لك أن تقرر عنا، يا غاريت. لو كانت حياتك هي التي تقلقك...

فألقى عليها نظرة ساخرة كئيبة:

ـ حياتي لا تعني لي شيئاً.

ـ إذن، لا تتخذ حياتي عذراً، أنا لا أقبل هذا، ولا الغلامان، لا يمكننا أن ندع ذلك الرجل يموت، إذا كانت هناك فرصة لإنقاذه.

رمقهم جميعاً بنظرة فولاذية، ولم يقل شيئاً. كانت كتفاه متصلبتين وهو يتحول إلى عجلة القيادة، وتشبثت يداه بها بعنف فانطلق المركب يشق طريقه، وأشار الغلامان إلى تيفاني بذعر مرة أخرى. فهزت رأسها، لم تكن هناك طريقة تجعل غاريت يغير رأيه، وهو الوحيد الذي بإمكانه أن يقود المركب في أسوأ الأحوال. والقرار الآن قراره وحده.

استدارت مقدمة المركب ببطء، ثم واجهت الريح. وابتسم الغلامان لتيفاني بارتياح، وردت هي بابتسامة باهتة، راجية ألاّ تكون قد حكمت عليهم جميعاً بالغرق... ثم توجهت إلى الراديو وأخبرت ألان بأنهم متوجهون إلى البحّار وسيبحثون عنه قدر المستطاع. نظر غاريت إليها بصمت وعبوس، وأصبح كلامه معهم منذ ذلك الحين أوامر مقتضبة يسارعون إلى إطاعتها حرفياً.

كانت الساعات الثلاث التالية أكثر ما عرفته تيفاني في حياتها رعباً. واشتد عصف الرياح، دافعة الأمواج كالجبال، وأصبحت الرؤية مستحيلة وبات المركب يعلو بهم وينخفض مع الموج. بدا واضحاً تماماً أنهم

يصارعون الموت ويكافحون هياج الطبيعة. ومع ذلك، لم يقترح أي منهم أن يعودوا أدراجهم.

كان عثورهم على الرجل مصادفة بحتة فقد لمح أحد الغلامين المركب المتخبط مع الأمواج. وكان على غاريت أن يستعمل مهارته البحرية كلها لكي يقترب من المركب وينقذ البحّار. وعندما تمكن أخيراً من تركيز سفينته على بعد مئات الأمتار من المركب الآخر، أضاء جميع الأنوار ثم أمر الغلامان بأن يلقيا بما يشبه المرساة إلى الجانب. وشرح لتيفاني بأن هذا يبطىء حركة السفينة. وسأله أحد الغلامين: «ألا يمكننا أن نقترب منه أكثر؟».

- هذا خطر جداً؟ إنها أقرب مسافة يمكننا بلوغها من دون المجازفة بالتصادم. دعونا نأمل في أن يكون لدى الرجل من الذكاء ما يجعله يتبع الإجراءات الصحيحة.

قال غاريت ذلك ببطء، ثم تنهد باستحسان عندما أخذ البحار يلقي إلى البحر بما يشبه الطبول.

- إنه زيت «الديزل». لقد ثقب الراميل، وستطفو نحونا محدثة في الماء نعومة الزيت ما يخفف من هياج الأمواج، عليه أن يعوّم حبلاً متصلاً بحلقة نجاة، عندئذٍ يحين دوركما...

ونظر إلى الغلامين بسلطة جادة مضيفاً: «عليكما أن تسحبا حلقة النجاة تلك ثم تجذبا الرجل بالحبل، المهارة والدقة هنا هي في أن ترفعوه إلى سطح المركب سالماً من دون أي إصابات مميتة نتيجة ارتطامه بجانب السفينة».

لم يكن ذلك بالأمر السهل، وبالرغم من أن حبل النجاة الذي كان يربط الغلامين إلى المركب منعهما من السقوط عدة مرات أثناء محاولاتهما الجاهدة لالتقاط حلقة النجاة، غير أن ارهاقهما الشديد منعهما من أن يظهرا الابتهاج حين كُلّل جهدهما أخيراً بنجاح. لقد سحبا الحبل بسرعة جديرة بالمديح، بحدوهما منظر الرجل عند طرفه وهما يجذبانه أقرب

فأقرب. وراحت مقدمة السفينة تتأرجح علواً في الهواء وانخفاضاً في الماء مما جعل عملية إصعاده سالماً أشبه بكابوس، لكنهما استطاعا ذلك أخيراً، وألقيا به على السطح وقد تبللوا كلياً وأخذوا يرتجفون. وبدون كلمة أو نظرة رضا، وجّه غاريت المركب نحو البيت. وكان وجهه، أثناء عملية الإنقاذ الناجحة هذه، وكأنما نُحت من الحجر، وأدركت تيفاني أن معركة إعادتهم إلى هاڤن بي سالمين تتطلب مهارته كلها وتركيزه، لذا لم تحاول أن تتحدث إليه.

رغم سنوات خبرته الطويلة، بدا غاريت عاجزاً عن التصرف عندما حملتهم موجة شاهقة، وأخذت السفينة تنزلق هنا وهناك في دوامة هائلة. وسمعت تيفاني صوت المروحة يزعق في الماء، ويخترق زمجرة الرياح. وابتدأت السفينة تهتز، فراح غاريت يشتم وهو يحكم إقفال صمامات تدفق الوقود إلى المحرك عندما مالت السفينة على جانبها، ثم انزلقت إلى الغور المنخفض بين الأمواج.

كان الأمر أشبه بالسقوط من مبنى بثلاثة طوابق إلى الأرض. قذفت الصدمة بتيفاني وغاريت إلى دعامة غرفة القيادة. ولولا حبل النجاة لجرفتهما الأمواج، ولو أنّ السفينة أصغر حجماً لتحطمت بفعل هذه القوى، لكن هذا المركب بُني ليدوم قرناً في مواجهة العواصف.

سنغرق جميعاً... أخذت تيفاني تفكر في ذلك ورئتاها تنفجران لحاجتهما إلى التنفس.

ثم هدأ صرير ألواح السفينة الخشبية فجأة وارتفعت فوق الشلال المتدفق. وتسرّبت المياه القوية من السفينة. وقفت تيفاني ورأسها يدور. كانت غرفة القيادة لا تزال موجودة رغم أن بعض الزجاج واللاسلكي قد تحطم. ورأت غاريت يقف مترنحاً، وقد شحب وجهه وأصيب بجرح بليغ. أطل أحد الغلامين برأسه ليطمئن إلى غاريت وتيفاني، فأشار غاريت إليه بأن ينزل تحت السطح مرة أخرى. وشعرت تيفاني بتنمل في يديها، لكنها استطاعت، بشكل ما، أن تعود إلى غاريت، فصرخ فيها

لتسمعه:

ـ هل أنت بخير؟

وكان وجهه ينزف دماً.

ـ نعم. سأحضر شيئاً لجرحك هذا.

فقال عابساً:

ـ هناك أشياء أكثر أهمية تعتنين بها.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟.

ـ لقد فقدنا المروحة.

ـ وماذا يعني هذا؟.

ـ يعني أننا إذا استعملنا المحركات سنتسحق حتى الموت.

ـ وإذا لم نفعل ذلك؟.

ـ ستسحقنا الأمواج حتى الموت.

ـ وإذا لم أفعل شيئاً لجرحك هذا، فستنزف حتى الموت.

عندما زحفت بحثاً عن صندوق الإسعافات الأولية، وجدت الغلامين والبحار الذي أنقذوه مصابين برضوض ولكن بدون كسور في العظم. وبذلت جهدها في تهدئة مخاوفهم، وطمأنتهم إلى أن غاريت ما زال بإمكانه قيادة السفينة. ثم عادت إليه بصندوق الإسعاف، وعندما حاولت تضميد وجهه قال:

ـ هذه مضيعة للوقت.

لكن تيفاني أصرت بعناد، إلى أن نجحت أخيراً في إيقاف النزيف. وأثناء عملها حدق في عينيها، وتملكها إحساس موحش بأنه يرى عينين أخريين... عينان لهما الزرقة السماوية نفسها. وسألته: «هل ما زال الراديو يعمل؟».

فهز رأسه: «إنه غير نافع».

جلست على المقعد الخشبي، وهي ترتجف بعد أن قامت بكل ما تستطيعه. ووقف غاريت بثبات عند عجلة القيادة، محاولاً إخراجهم من

هذه الأمواج الهائجة المهلكة، ما دام بإمكانه ذلك. سيموتون جميعاً، هذا ما خطر لتيفاني.

ومع ذلك، لم تشعر بأن اللحظات التي عاشوها لتوهم حقيقة رغم علمها كم أن الوضع ميئوس منه. وتساءلت عما إذا كان جويل وماري بيث قد شعرا لحظة بأن ذلك قد يحدث لهما، تلك الليلة منذ عشرين عاماً. من الغريب أن تيفاني لم تشعر بالخوف، بل تجاوزته بشكل ما.

وسألته بفضول: «لو أن الأمر ممكن، هل كنت لترسل نداء استغاثة بالراديو، يا غاريت؟».

هز رأسه ببطء شديد: «لا أدري. أنا أكره المجازفة بحياة الآخرين. لن أفعل ذلك قط من أجلي، ربما من أجل الآخرين فقط».

أمعنت تيفاني التفكير في ذلك الجواب فترة طويلة، ولم تشكّ لحظة في أنه كان ليختار الموت على أن يعرض حياة الآخرين للخطر. تذكرت قنوطه وغضبه لضياع حياة آخرين في تلك الليلة منذ عشرين عاماً، حياة كثيرين ضاعت لمخالفتهم نصيحته. لكنه اليوم خالف مبادئه بنفسه ثم قال:

ـ من المستبعد أن تتمكن سفن خفر السواحل من إنقاذنا. يمكنك أن تصلي لأجل ذلك إذا شئت، رغم أنه يستحيل عليهم رؤيتنا بواسطة الرادار في هذه الحالات.

كان يقدم إليها خيطاً دقيقاً من الأمل، لكنها أدركت بالغريزة بأنه لا يهتم بهذا على الإطلاق. فهو سيفعل ما بوسعه... العجوز هو الآن ضدّ البحر الذي شكّل حياته... وموته بالتأكيد، ولعله يرحب بهذه النهاية لنفسه. أتراه يفكر في العاصفة الأخرى التي أنهت حياة الكثيرين منذ عشرين عاماً؟ وقالت شاعرة بثقل المسؤولية:

ـ أنا آسفة لذهابنا بالرغم عنك. الغلامان، كانا سيتراجعان لو أنني لم ألحّ في الأمر. أنا فقط لم أستطع....

ـ آه، أعلم، طوال تلك السنوات كنت أتمنى لو أنني ذهبت في أثرهم

ليلة العاصفة تلك، سواء كان ذلك انتحاراً أم لا، أتمنى لو أنني ذهبت. الكبرياء ولبس الخوف هو الذي منعني. ولكن من الصعب العيش مع... الذكرى... والتفكير في ما كان يمكننا فعله ولم نفعله.

ـ ماذا كانت ماري بيث ماكاولي بالنسبة إليك، يا غاريت؟

سألته، وقد أرادت أن تعرف... رغم أن ذلك لم يعد يفيدها الآن؟

ـ حفيدتي.

كادت تيفاني لا تسمعه بسبب زمجرة الرياح، إذ جاء جوابهَ بصوت خافت للغاية، مثقلاً بالألم والندم والحب الحزين. وكانت صدمة الجواب مؤقتة. هذه القرابة تفسّر كل شيء. وسألته برقة:

ـ لماذا لم تمنعها من الذهاب مع جويل في المركب؟ ولماذا تلومه لموتها؟

نظر إليها بعينين كئيبتين موحشتين:

ـ لم أستطع منعها، أرادا أن يهربا معاً... فقد كانا صغيرين جداً...

تفاجأت تيفاني لهذا الجواب.

ـ لم أعلم بذلك إلا تلك الليلة، ليلة العاصفة. وكنت غاضباً... فقد كانت طفلة، حفيدتي الصغيرة تلك، أردت أن أقتله. وليسامحني الله... فقد أفزعتها بثورة غضبي.

وهز رأسه، والألم يزداد في وجهه المغضن: «لقد سجنتها في غرفتها، لكنها هربت بشكل ما، ولم أعرف أنها خرجت وذهبت إليه... لم أعلم أنها كانت على متن ذلك المركب إلا بعد أن انطلق بهما، ولوّحت لي بيدها، وذراعه حولها يحتضنها».

فقالت تيفاني بحزن:

ـ لا بد أنها كانت تحبه كثيراً.

فقال بوحشية:

ـ كانت في السادسة عشرة من عمرها فقط! أمضيا سنوات طفولتهما معاً... كانا كأخ وأخته...

ـ لعل هذا سبب علاقتهما الحميمة. وأؤكد لك أن جويل لم ينسَ ذلك قط، وأشك في أن ينسى يوماً.

سكتت قليلاً، ثم سألته بهدوء:

ـ ألا تستطيع أن تصفح عنه الآن، يا غاريت؟ لا بد أنك تعلم في قلبك أن ماري بيث ذهبت معه تلك الليلة لأنها أرادت ذلك، ولأنها قررت ذلك... تماماً كما قررت أنا منذ ساعات قليلة ألاّ أهرب لأجل سلامتي الشخصية.

عاد ينظر إليها من دون أن يراها في الواقع، وقد نضحت عيناه ألماً وذكريات. وانهمر المطر يجلد النوافذ كالسياط.

كانت الريح تزعق كآلاف الأرواح المعذبة. إنما العاصفة التي هبّت منذ عشرين عاماً هي التي كان غاريت يراها ويسمعها. وأخيراً قال وفي صوته فراغ مخيف:

ـ ليس الوحيد الذي يحمل عبء الذنب، لو إنني لم أغضب منها، لما هربت إليه. لما كانت معه عندما أصرّ رويين على أخذ مركبه إلى الصيد. هذا ما شغل بالي طوال هذه السنوات.

ونظر إلى تيفاني بحدة وفي صوته مرارة: «لكن جويل فيبر يتحمّل الجزء الأكبر من الذنب وسيظل كذلك دوماً. ما كان عليه أن يدعها تذهب معه تلك الليلة. أي نوع من الحب هذا؟».

ـ ربما هو الحب السامي، حين لا يعود هناك شيء مهم سوى أن يكونا معاً، متشاركين في كل ما يحصل، في السراء والضراء.

واغرورقت عيناها بالدموع وهي تفكر في أنها لن ترى أبداً ذلك الأمل الذي يملأ نفسها يتحقق... الأمل في أن يعيشا، هي وجويل، معاً بقية حياتهما. وتساءلت عما إذا كان جويل سيفجع لفقدانها بقدر ما فجع بفقدان ماري بيث. ولم يبد لها هذا محتملاً، فهما لم يعرفا بعضهما البعض إلا منذ وقت قصير جداً، بعكسهما هو وماري بيث. وقالت والألم يعتصر قلبها:

ـ لو كنت مكان ماري بيث، لما منعني شيء في العالم من الذهاب معه إذا ظننت أنه قد لا يعود إليّ، لا شيء على الإطلاق.

ألقى عليها نظرة حادة، ورأى الدموع في عينيها فنظر بعيداً، ووجهه جامد متوتر. والتزم الصمت في حين عادت تيفاني إلى تأملاتها. حاولت ألاّ تفكر في جويل، فقد كان ذلك مؤلماً للغاية. وأخذت تستعيد ذكريات حياتها السعيدة مع أسرتها...

واندفع أحد الغلامين فجأة نحوهما: «هنالك سفينة على بعد ميلين نحو الشمال الشرقي، وحيث أن محركاتنا بهذا الشكل...».

سأل غاريت بحدة وهو يتفحص البحر حولهم بأمواجه العاتية: «هل هي سفينة حفر السواحل؟».

ـ لا، إنها كبيرة بيضاء، ولا بد أنها للسيد فير (ليبرتي).

وكان الغلام يتكلم بسرعة وعنف حين أضاف: «أيمكننا أن نشعل جهاز اللهب إشارة لليخت؟».

ألقى غاريت نظرة جانبية على تيفاني التي أجهدها تضارب مشاعرها. كان قلبها يخفق بعنف لفكرة أن جويل جاء للبحث عنها إلى حد لم تستطع التفكير معه فيما يعانيه. وقال:

ـ أرسل الإشارة النارية، وابدأوا بإحضار كل الطبول التي لدينا. أنت تعلم ما ينبغي القيام به، علينا أن نستعد.

واندفع الغلام ليفعل ما أمره به، واستدار غاريت إلى تيفاني وقد بدا على وجهه مزيج مؤلم من الحسرة والفضول التهكمي:

ـ من كان ليصدّق ذلك؟ ومع ذلك، أنت التي أحضرته إلى هنا، أليس كذلك؟

ـ هذا ما أرجوه، أرجو أن أكون أنا من أحضره وليس الذكريات، يا غاريت. مهما كان سماع هذا مؤلماً لك، لكنني لا أدري في الحقيقة. ولعله هو أيضاً لا يدري.

ـ هذا لا يهم، أنت ما كانت ماري بيث لتصبح عليه، لو عاشت.

وهذا لا يسلبك شيئاً يا تيفاني. لا تفكري في هذا أبداً. أن يكون لك قلب معطاء هو أمر لا يُستهان به. لعلي... كنت مخطئاً في لومه... إلى هذا الحد.

ـ تصالح معه، يا غاريت. هذا إذا كنت تعزّني ولو قليلاً، أرجوك.

فالتوى فمه:

ـ سنرى، إذا سنحت لي الفرصة، سنرى في الوقت المناسب.

ثم التحق بهما الثلاثة الآخرون وقد جهزوا إشارة اللهب وأخذوا يطلقونها بين حين وآخر. ولم تكد تمضي عشر دقائق، حتى رأوا اليخت مرة أخرى، متجهاً نحوهم مباشرة، فتبدّد من ذهن تيفاني أي شك، إنه فعلاً (ليبرتي). وهذه المرة، كانت تيفاني واثقة تماماً، من أن جويل مصمم على الوصول إليها.

* * *

١٣ ـ قبر الأمواج

قال غاريت ببطء: «إنه يقترب أكثر مما ينبغي».

كان (ليبرتي) على بعد عشرين متراً متجهاً نحو السفينة مع اتجاه الريح وقد استقر بهم الوضع نسبياً الآن بعد إلقاء المرساة.

ـ لا بد أنه يظن ذلك آمناً بما يكفي.

أجابته تيفاني بذلك رغم أنه بدا واضحاً، أن في هياج البحر الخطر هذا قد تحمل موجة عاتية سفينتهم وتقذفها على اليخت فتسحق المركبين وتحولهما إلى فتات. التفت غاريت إليها:

ـ إنه يعلم بأنه يتصرف بطيش وحماقة. لكنني أظن أن كلينا، يعلم ما الذي يدفعه إلى هذه المجازفة. إنه يريد أن يخرجك من البحر في أسرع وقت ممكن.

ـ لكننا خمسة هنا.

قالت هذا باحتجاج، فأجاب:

ـ جويل فيبر لم يأت إلى هنا من أجل أحد سواك، يا فتاتي. لديه من الأسباب ما يكفي لئلا يحرّك ساكناً من أجلي أو من أجل أي شخص آخر في هاڤن بي. عندما ماتت ماري بيث ألقى الجميع اللوم عليه، ولم نتحدث إليه، وأدرنا له ظهورنا ونبذناه كلياً. ولا عجب أن يترك القرية، وأشك في أنه سيصفح عنا أبداً.

لم تستطع تيفاني أن تجادل في هذا الأمر، فقد كانت تعلم أن جويل لم

يصفح عن هاڤن بي. وقد فهمت أخيراً ردة فعله الغاضبة لما عرضته عليه، ولماذا رفض رؤيتها مرة أخرى بعد لقائهما الأول.

ابتعد غاريت ليصيح بالغلامين: «إبدآ بثقب الطبول بالفؤوس، ثقبان أو ثلاثة في كل منها، ثم اقذفاها إلى البحر».

أخذت تيفاني تتفرج عليهما وهما يعملان، إذ منعها غاريت من مساعدتهما. كانت تعلم أن الصياد العجوز حريص على عدم تعريض حياتها للخطر أكثر مما فعلت. وما قصه عليها جعلها تتساءل عما فكر فيه جويل وشعر به وهو ينطلق وسط العاصفة لإنقاذها وإلى أي مدى استطاعت الوصول إلى أعماق نفسه.

كان معها حساساً للغاية فياضاً بالحنين. ربما لأنه أراد أن يستعيد ما شعر به منذ عهد بعيد نحو ماري بيث، قبل أن ينعزل عن الناس ويصبح قاسياً ساخراً. قال لها إنه لم يتصرف بهذا الشكل مع أي امرأة، إلاّ أنها مختلفة. وما كانت تيفاني تريد أن تعلمه هو مدى الاختلاف. ولماذا؟ وماذا أعطته أكثر مما أعطته كل تلك النساء اللاتي عرفهن بعد مغادرته هاڤن بي؟ قال غاريت إنها كما كانت ماري بيث لتصبح عليه لو عاشت. هل هذا ما يشعر به جويل نحوها؟

ثم عادت تتساءل عما إذا كان أي من هذه الأشياء مهماً حقاً. رأت الغلامان وهما يقذفان إلى البحر بدولاب النجاة الثقيل. وبقيت عيناها شاخصتين وهو يطفو مبتعداً، آخذاً معه الحبل الذي سيربطها بجويل مرة أخرى، إذا سارت الأمور على ما يرام. لقد جعلهم غاريت جميعاً يتفحصون مرتين سترات النجاة التي ارتدوها. ولم يعد لديهم ما يمكنهم عمله إلا أن ينتظروا حتى يربط بحارة اليخت الحبل بيختهم.

ـ لقد حصلوا عليه.

صاح أحد الغلامين بذلك بارتياح وإثارة. ربط غاريت الحبل حول كل واحد منهم، وهو يقيس المسافة بين الواحد والآخر بعناية لئلا تتعقد مهمة إصعادهم إلى سطح اليخت. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً، انتظر

اللحظة المناسبة، ثم أمرهم بالقفز.

ما إن أصبحت تيفاني في الماء حتى شعرت بشدّ الحبل، ولم يضيّع بحّارة (ليبرتي) الوقت. اندفعت بعنف عبر الأمواج التي ليّن الزيت ملمسها. وحبست أنفاسها وتجهّمت عندما أخذ البحر المضطرب يحركها هنا وهناك بعنف، والتف شعرها حول وجهها، وكانت تختنق وتبصق في كل مرة ترفع رأسها فوق الماء. ولم تر شيئاً، حتى أنها لم تحاول أن تنظر أمامها. بقيت فقط تصرف بأسنانها وهي تتعلق بالحبل بكل قوتها، وشعرت بالحبل يجذبها، ثم اصطدمت بجسم آخر.

فتحت عينيها وأخذت تحدّق في وجه جويل. كان شاحباً مرهقاً متجهماً، وعيناه تلتهبان بمشاعر عنيفة، وشفتاه تتلفظان بكلمات لم تستطع أن تسمعها. أمسكها من إبطيها ورفعها إليه، مستعملاً جسده وسادة تمنع احتكاكها بالمركب. ثم امتدت إليها أيدٍ أخرى تجذبها إلى سطح المركب. واستلمتها ذراعان تحتضنانها بعنف بالغ... فعرفت أنه زاكاري لي، الذي أطلقها بسرعة ليعتني بها شخص آخر.

ثم رفع أخوها أحد الغلامين إلى السطح، وبمجرد النظر إلى وجه الغلام الملطخ بالزيت، أدركت تيفاني ما حال وجهها هي، لكن المهم أنهم أحياء يرزقون. ورأت رجلاً يقف بعيداً حاملاً آلة تصوير، يصور فيلماً عن عملية الإنقاذ في الرياح والمطر، وجعل صعود المركب وهبوطه ذلك العمل خطراً للغاية لكنه ثابر رغم ذلك.

نجح الغلام الآخر في الصعود بسلام، وكذلك البحار، ولم يبق سوى غاريت، وجويل. وأخذت تيفاني تدعو الله بلهفة بألاّ يحدث لهما الآن أيّ مكروه. وبدا أن النشاط حول الآلة الرافعة التي تسحب الحبل، قد تضاعف. ودخل مزيد من الرجال ولم تعرف ما الذي يحدث، فاندفعت إلى الدرابزين تحدوها لهفة أعمق من أن تتجاهلها.

كانوا يسحبون غاريت وجويل معاً. كانت ذراعا جويل تطوّقان الصياد العجوز، يسنده ويحميه. وتمنّت تيفاني أن يدرك غاريت كم كان

مخطئاً. لقد اهتم جويل بالجميع، كما فعل منذ عشرين عاماً. لم يأتِ من أجلها فقط، رغم أنها لم تمانع في أن يكون الأمر كذلك.

ما فعله من أجلها فعله لكل شخص آخر منهم، ومن دون تمييز على الإطلاق، وبمجازفة كبرى. خلف كل تلك الصلابة والمرارة والسخرية هناك رجل شهم طيب، رجل محب.

تقدمت تيفاني متعثرة نحو جويل، وهو ما زال مشتبكاً بالحبل، فاستدار غريزياً يأخذها إليه ويحيطها بذراعيه بقوة. لم يبدُ عليه أنه لاحظ وجهها وجسمها الملطخين بالزيت والمبللين، احتضنها بشدة شعرت معها بقلبه يخفق بقوة في صدره وهو يزفر راحة وألماً. وصاح شخص يقول:

ـ ها هي تغرق.

نظر الجميع ليروا سفينة غاريت تترنح. وإذا بموجة تعلوها ثم تنقضّ عليها، ثم بدا وكأن البحر انفرج ثم ابتلعها. وما لبثت الأمواج المضطربة أن أطبقت عليها. وهكذا لم يبق شيء يشهد على قبرها.

ـ عشنا معاً أكثر من ستين عاماً.

قال غاريت هذا بصوت جريح وهو يحدق بكآبة إلى حيث كان مركبه. مدّ جويل يده يقبض على ذراعه بعطف:

ـ أنا آسف لأننا لم نستطع إنقاذها، يا غاريت.

إلتفت العجوز إليه وفي عينيه طيف عذاب:

ـ لقد دامت عشرين عاماً أكثر مما كان ينبغي لها.

وتحت المطر المنهمر، تواجه الخصمان، من دون أن ينتبها إلى هياج الطبيعة حولهما، بعد أن أعادتهما الذكريات الحزينة إلى زمن مختلف، وقال العجوز: «كنت ستنقذها لو استطعت، إنني أدرك ذلك الآن».

أدركت تيفاني على الفور أنه لم يعنِ بكلامه سفينته ولكن حفيدته. وجاء جواب جويل متردداً مجهداً تعذبه الشكوك:

ـ لطالما كنت أفكر... وأتساءل... عما إذا كان هناك ما عليّ أن أقوم به... بإمكاني أن أقوم به. وما إذا كان هناك....

فقاطعه غاريت:

- كنت مخطئاً طوال تلك السنوات، يا جويل. لو أمكنك أن تنقذ ماري بيث لفعلت ذلك، لم أعد أشك في ذلك، كنت حينذاك تحبها، أليس كذلك؟.

- نعم.

واشتدت ذراع جويل بتشنج حول تيفاني: «كانت بالنسبة إلي، الحسن والجمال كله، ولم يكن بإمكاني، تلك الليلة، أن أتركها خلفي، يا غاريت. كانت ذاهلة مضطربة لفكرة أن أتركها وحدها. أرادت أن تأتي معي، واضطررت لأخذها».

فقال العجوز وقد بدا أكبر سناً:

- إنه ذنبي. لم أفهم... وأنا أكثر أسفاً مما يمكنني قوله... لأن الأمور حدثت بذلك الشكل.

فقال جويل:

- في تلك الليلة فقدت كل ما كان ثميناً لديّ. لم تكن مضطراً لإرسال تيفاني إليّ لتذكرني بها، يا غاريت، فأنا لم أنسها قط. عندما فقدت ماري بيث، لم يعد شيء يهمني أبداً. لا شيء على الإطلاق. منذ ذلك اليوم، كل ما فعلته هو مجرد العيش... ولكن لا شيء في الواقع كان مهماً بالنسبة لي.

فقال غاريت وعيناه تتحولان إلى تيفاني: «لقد أصبح مهماً الآن، ما حدث تلك الليلة...».

فأضاف جويل عابساً: «يمكن أن يحدث مرة أخرى، أريدكم جميعاً خارج هذه العاصفة، ثم علي أن أعود بهذا المركب إلى هافن بي».

نزلوا جميعاً إلى قسم البحارة حيث التفوا ببطانيات دافئة، وقُدمت إليهم القهوة الساخنة، وجلس جويل مع تيفاني إلى أن اطمأن إلى حالها. عانقها بشكل أنبأها بأنه لا يريد أن يتركها، لكنه ذهب، مصمماً على أن يهزم هذه العاصفة ويحرص على ألاّ يكون هناك ضحايا على الإطلاق هذه

المرة.

جاء زاكاري لي ووضع ذراعيه حولها.

سألها بلطف واهتمام: «ماذا تحتاجين وماذا بإمكاني فعله لأجلك؟».

فمنحته ابتسامة صغيرة جافة وأجابت:

- حمام دافىء مع الشامبو، وعدا عن بعض الرضوض، أنا بخير.

- أظن أنه حان الوقت لأتراجع عن رأيي في جويل. إنه... لا بأس به.

وكان صوته مفعماً بالمشاعر.

كانت تيفاني تعلم أن كلمته هذه هي أرفع وسام لأن زاكاري لي لا يمنحه أبداً لإنسان. وقالت: «هذا ما أظنه. كيف عرف...؟».

- كان جويل معي في محطته عندما اتصل ألان. بدا قلقاً لأنك عدت إلى البحر للبحث عن ذلك البحار بعد أن رفض غاريت القيام بذلك. وما إن سمع جويل ذلك، حتى شحب وجهه تماماً. وفي غضون ثوانٍ كان قد أمر بإعداد يخته وطلب متطوعين. وخلال خمس دقائق كنا في طريقنا إلى هنا. لا أدري كيف علم أنك قد تكونين في خطر. ربما لدى جويل حاسة سادسة بهذا الأمر.

فهزت تيفاني رأسها:

- منذ زمن طويل فقد فتاة أحبها في البحر أثناء عاصفة كهذه، وقد أصبح ذلك هاجسه منذ ذلك الحين.

إعتصر زاكاري لي يدها بشدة: «ربما هذا يفسر بعض الأمور، ولكن بإمكاني أن أطلعك على سرّ. من المؤكد أن جويل لم يعتمد على الحظ، ولا أنا».

فقالت تغيظه لتخفف من الاهتمام الخانق في عينيه: «لا يمكن أن تخدعني، لقد جئت لإجراء مقابلتك التلفزيونية وحسب. وقد رأيت بنفسي الكاميرا تصوّر فيلماً عن عملية الإنقاذ».

فقال بابتسامة مرغمة:

ـ حسناً، بما أنك ذكرت ذلك، أنت محقة، أنا صحافي يضع عنواناً جذاباً لأي شيء.

تكلّم ببطء، عابثاً، رغم أنهما يعلمان مدى زيف هذه الصورة. وتنهد بعمق:

ـ كماأنني قاسٍ عديم الخجل لا أشعر مع الآخرين...

ولم يعد يعرف ما يقول، فابتسمت لهذا الأخ الضخم الذي تحبه كثيراً، وقالت تساعده على تعنيف نفسه: «وجبان تماماً».

فبادلها الابتسام:

ـ شيء من هذا القبيل، لكنني سأعاقبك على هذا. يمكنك أن تقومي بالمقابلة الآن، وأنت ملتفة بالبطانية ومتسخة، سواء شئت ذلك أم أبيت.

ـ آه، لا، أنظر إلي فقط... لا يمكنني ذلك.

فضحك:

ـ تبدين عظيمة، يا أختي الصغيرة، وملائمة تماماً لمقابلة مأساوية حقيقية تضج بالحياة. كما سيساعدنا ذلك على تمضية الوقت.

كان على صواب بالنسبة لهذا، فهذا سيساعد الآخرين على صرف انتباههم عن العاصفة. فقالت متأملة:

ـ أظن أنه يمكننا القيام بذلك. هل ستطرح الأسئلة؟.

فأجاب بابتسامة صغيرة مضحكة:

ـ لا أظنني فقدت الفن.

أخذت تفكر في الوضع. أرادت أن يحصل زاكاري لي على افتتاحية مثيرة مفاجئة في أخباره، كما أرادت أن تبقى مع جويل مدة أطول.

ـ فكرة جيدة أن نجري المقابلة الآن، لأننا بعد أن نعود إلى هاڤن بي، سنكون، أنا وجويل، معاً وحدنا. مهما كان السبب.

فقطب زاكاري جبينه:

ـ تيفاني، كنت أمزح فقط، الأمر ليس بهذه الأهمية، وأنا لا أتوقع منك أن...

ـ ولكن علينا القيام بذلك. إذا كنت تريد المقابلة.

تأملها بصمت لحظات عدة ثم ابتسم ابتسامة أخرى:

ـ أرى أنك حسمت أمرك مرة أخرى. ولهذا أظن بإمكاننا ذلك.

استغرق تنظيم الأمر بعض الوقت، وطلبت تيفاني منشفة لتنظف وجهها قليلاً، لكن زاكاري لي رفض، وأصر على أنها إذا كانت ستقف أمام الكاميرا، فالأفضل أن تبدو كما هي الآن تماماً. وقال يذكرها:

ـ قولي الحقيقة، يا أختاه.

وتأوهت تيفاني.

لم ينسَ زاكاري لي فن صنع معظم تقارير الأخبار. تحدث مع تيفاني عن عملية الإنقاذ، كما استدرجها إلى الإدلاء بتعليقات عن مقابلة ليلة أمس مع نيل باترسون. قام بعمل رائع، وعندما انتهى، هنأته بحرارة على عمله. وضحك هو بهدوء:

ـ إنه كالشطرنج، يا أختي...

وسكت، ثم عبس، وهز كتفيه: «مجرد قطع على لوحة الشطرنج، فتأتي بأفضل النتائج».

ما زال ماضيه يرافقه، هو أيضاً، كما أخذت تيفاني تفكر بحزن وهي تنظر إلى أخيها يبتعد ليستشير مصوره.

وأخذت تتساءل عما إذا كانت مرتبطة بشكل نهائي بشخصية ماري بيث في ذهن جويل؟ ولكن في لقائهما الأول، تذكرت أنه انجذب إليها قبل أن يلحظ لون عينيها، انجذب بما يكفي ليعرض عليها عملاً، إذا ما تركت كل علاقة لها بهاڤن بي. وفي النهاية، كان انجذابه إليها كافياً ليحضر إلى هاڤن بي من أجلها. من المؤكد إنه لم يكن يريد أن يخسرها. ربما لن يحبها بقدر ما أحب ماري بيث، لكن تيفاني لم تعد تشك في أنها تعني بالنسبة إليه، أكثر بكثير من مجرد فتاة أعجبته. سيكون لديهما مستقبل معاً، وكانت واثقة من ذلك.

ارتفعت معنويات بحارة اليخت بشكل واضح عندما اجتازوا

المنحدرات الصخرية في الرأس البحري، وأخذ الغلامان يثرثران في توقع مثير... أصبح لديهما قصة عظيمة يرويانها لأسرتيهما وأصدقائهما... إنها مغامرة العمر. وتلاقت عيون تيفاني وغاريت. كانت النهاية مختلفة هذه المرة، وكانا شاكرين لذلك، لكن معرفة نهاية القصة الأخرى أضفت على الذكرى تأثيراً مؤلماً للغاية.

سارت نحوه بخطوات غير ثابتة، تترنح لاهتزاز المركب، وتتعثر بالبطانية الملتفة حولها. ونظر إليها غاريت بابتسامة صغيرة مرهقة، ثم أفسح لها مكاناً بجانبه. وعندما جلست قال: «كدنا نصل».

- نعم، وأريد أن أشكرك.

- هذا غير ضروري.

- كان بإمكانك أن تتمسك بشكواك من جويل.

فهز رأسه:

- تعزيتي الوحيدة أن كل أحقادي المرة قد ارتدّت عليّ. لقد دفعتك نحوه يا تيفاني والكراهية في قلبي، حتى أنه لم يخطر لي أنك قد تملأين الفراغ في حياته. وهذه سخرية القدر، أليس كذلك؟

- يبدو لي أن أشياء كثيرة في الحياة تحدث بدون سابق تخطيط.

- مثل أسرتك، وهذا أمر جيد لجويل، فهو لم يكن له أحد في العالم سوى روبين الذي اعتبره عبداً له أكثر منه حفيداً.

- لا بد أن لديه أبوين في مكان ما.

قالت تيفاني هذا برقة زائدة، متعطشة إلى معرفة كل شيء عن الرجل الذي تنوي قضاء حياتها معه. فقال غاريت عابساً:

- شيء لا يذكر، كانت أمه غير متزنة التصرفات، ربما كردّ فعل على قسوة أبيها. وأخيراً تركت جويل لأبيها وهو لا يزال طفلاً رضيعاً، وهربت مع بائع جوال. ونشأ جويل وحيداً تماماً لا يحبه أحد... ما عدا ماري بيث.

فقالت بلطف:

- أخبرني عنها.

فأضاءت الذكريات عينيه المجهدتين:

- كانت مرحة ضاحكة دوماً، تلك الصبية. كانت نور حياتي منذ دخلتها، عاشت معنا منذ ولادتها وكانت كل شيء بالنسبة إلي، فتاة طيبة على الدوام. أظنني دللتها في أمور كثيرة، لكن الدلال لم يفسدها قط، بل كانت كريمة معطاء ومحبة...

وهز رأسه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ولم تعرف تيفاني كيف تعزيه. فتمتمت تقول: «آسفة، يا غاريت».

- ما زالت، طوال هذه السنوات، حية بالنسبة إليّ.

فقالت بهدوء:

- ما من خطأ في الاحتفاظ بالذكريات الحسنة، وعلى الإنسان أن يحفظها دوماً، فهي نعمة الحياة.

فربّت على يدها، قائلاً:

- أرجو أن يتمكن جويل من منحك السعادة التي تستحقينها... التي كانت تستحقها ماري بيث.

وتمنت تيفاني أن تمنح جويل تلك السعادة هي أيضاً، فهو لم يحصل سوى على القليل من الحب في حياته. ولا عجب في أن يكون متعطشاً إلى هذا الحد إلى ما فقده مع ماري بيث... لقد عاش حياة طويلة خالية من الفرح ومن الأمل في العثور مجدداً على الحب الذي عرفه ذات يوم رغم تشوّقه إليه في فراغه الروحي.

سكتت المحركات، ونزل أحد البحارة على السلم وهو يقول بابتسامة عريضة: «لقد وصلنا، هناك حشود كثيرة مجتمعة للترحيب بكم، سننزلكم إلى اليابسة بالسلامة».

ونظر إلى تيفاني: «طلب السيد فيبر أن أسألك إذا كنت ستوافينه إلى السطح، يا آنسة جايمس».

ثم التفت إلى زاكاري لي: «هنالك سيارة تنتظرك لتعيدك مع فريقك

إلى المحطة».

وحمل زاكاري لي تيفاني على كتفيه ولم ينزلها إلا ليعطيها لجويل، قائلاً: «أظن بإمكاني أن أثق بأنك ستعتني بها».

ـ هذا ما أنويه.

أجابه جويل وهو يضم تيفاني إلى جانبه بشدة. وقبل زاكاري لي رأس تيفاني: «إنتبهي إلى نفسك، وحظاً سعيداً، ولا تزجي نفسك في مزيد من المشاكل الآن. فأنا سأكون مشغولاً جداً في الفترة القادمة».

فأجابت باسمة:

ـ وأنا كذلك. أتمنى لك حظاً سعيداً. والآن إذهب وأثبت أنك ماهر بقدر ما قلته عنك.

فضحك وذهب، وتلاشت ابتسامتها وهي تنظر إلى جويل. لم يكن عابساً تماماً الآن، لكن الإرهاق بدا جلياً عليه، وتلاقت عيناه بعينيها وفيهما من الحاجة إليها ما مزّق فؤادها. قالت له بصوت أبح: «لم أشكرك بعد».

رفع يده وأزاح بلطف خصلة شعرها المشعث عن وجهها ثم سألها وكل كلمة تنضح بالمشاعر: «هل تأتين معي إلى بيتي الآن، يا تيفاني؟».

ـ نعم، سأفعل كل ما تريده، يا جويل.

أجابته بذلك ببساطة، ولأنها أرادت أن تمنحه كل ما يريده منها، أضافت: «أحبك».

ودنت منه لتعانقه دونما الاهتمام بالناس الذين يرونها وبما سيظنونه. لأنها، في تلك اللحظة، لم تكن تهتم إلا برأي جويل فيها وشعوره نحوها، أرادته أن يشعر بحبها.

بدا متردداً قليلاً، وكأنه لا يعرف بما يجيب، فأحاطها بذراعيه، وجعلها تشعر بأنها مرغوبة محبوبة للغاية.

وإذا بصوت مألوف، حاد خشن، يقول: «لقد أمسكت بك هذه المرة، يا جويل».

هتفت نيريدا بيلامي بهذا بلهجة انتصار. وعندما فتحت تيفاني عينيها كاد وهج الكاميرا يعميها.

ـ نعم يا نيريدا، لقد أمسكتني.

وافقها جويل على ذلك من دون أن يبدو عليه أدنى انزعاج. وعادت هي تقول: «لا يمكنك أن تنكر وجود حب بينكما الآن».

ـ وسأعطيك خبراً أكثر إثارة وهو أنني سأتزوج الآنسة جايمس حالما نتمكن من جمع أفراد أسرتها لحضور العرس، كل أخوتها وأخواتها وكذلك أمها وأبيها. والآن، نرجو المعذرة لأن إحدى أخوات الآنسة جايمس وابنها ينتظراننا.

ـ وإلى أن يحين الزواج، سننشر نحن الخبر.

أعلنت نيريدا ذلك بتهديد واضح بأن جويل لن يستطيع منعها.

ـ انشري، تباً لك. وماذا يهمني؟ فأنا سأتزوج.

واندفع مع تيفاني بين الصحافية ومصورها واتجها إلى الجسر المؤدي إلى الرصيف، ولم تبدِ تيفاني أي احتجاج. فقد كان رأسها يدور منتشياً بفكرة الزواج من جويل... إذا كان يعني هذا حقاً، حتى أنها لم تشعر بالريح والمطر وجويل يسرع بها على طول الرصيف وكذلك لم تلحظ جموع الناس المزدحمة على السور الحجري إلى أن وصلا إليه.

أراد والدا الغلامين أن يصافحا جويل ويشكراه، وأجابهما متصلب الجسم، متضايقاً لأنه أصبح محط الاهتمام والفخر في قريته. وتركهما حالما تمكن من ذلك، متخذاً تيفاني عذراً لذلك.

كانت السيارة البنتلي الحمراء تنتظر قريباً منهما، وبيتون واقفاً قرب الباب. قالت تيفاني محتجة:

ـ جويل... لا يمكننا الصعود إلى السيارة بهذه القذارة. سنتلفها.

فقال بيتون يطمئنها بابتسامة عريضة:

ـ لا تقلقي يا آنسة، فقد فرشت بسطاً على أرضها، نحن مسرورون لعودتك سالمة إلينا.

- إلتفتي وانظري إلى هاڤن بي، يا تيفاني. استوعبي كل شيء فيها، كما هي الآن. قرية صيد سمك عتيقة. إطبعي ذكراها بحيث تدوم مدى حياتك.

قال جويل لها هذا. وأدركت ما يعنيه، وهو أنها ستذهب معه ولن يعودا أبداً. لقد عاد إلى هنا من أجلها، لكن هذه الضرورة انتهت الآن.

فعلت ما طلبه منها، وقد لفّت البطانية حولها بقوة. كانت، بعكس جويل، تحب كل بقعة في هاڤن بي، صف المحال القديمة الطراز المواجه للمرفأ، الرصيف المبلّط ومنعطف الخليج الواسع...

وإذ أدركت ما حدث، أصيبت بصدمة بالغة. وصرخت من دون وعي وهي تتشبث بجويل الذي سألها: «ماذا حدث؟».

- إنها ليست هنا، لقد ذهبت.

ورفعت بصرها إلى جويل بيأس وقنوط مضيفة: «أنت قلت إن هذا سيحدث».

نظر حوله من دون أن يفهم ثم عاد ينظر إليها بقلق: «ماذا حدث؟».

- الحيتان، الحيتان المحدّبة، لقد اكتسحتها العاصفة وأخرجتها من خليج هاڤن بي.

* * *

١٤ ـ معنى الحياة

كانت تيفاني ممزقة المشاعر عندما وضعها جويل في السيارة. كان عليها أن تذهب معه، فسعادتها وسعادته تعتمد على ذلك. ولكن ماذا سيحدث لمشروع السياحة الناشىء بعد رحيل الحيتان؟ إذا انهار كل شيء الآن، فستحل الكارثة التي توقعها جويل.

لماذا كان على العاصفة أن تهب في هذا الوقت بالذات قبل أن يتم تأسيس كل شيء بشكل نهائي؟ لو حصل ذلك بعد عدة سنوات لما كانت له أهمية كبرى، لأنه عندئذٍ سيصبح لديهم مصادر أخرى تدرّ عليهم الأرباح. ولكن، من ناحية أخرى، لو أن العاصفة لم تحدث، أين كانت ستصبح علاقتها مع جويل؟

«تيفاني؟»

رفعت بصرها كارهة ليلتقي ببصر جويل، غير قادرة على إخفاء عذابها الداخلي. كانت تحبه، إلى أقصى حد. ولكن هذا أمر لا يمكنها مشاركته فيه. فهو لا يحب هاڤن بي، وكان قد حذرها من الإلحاح في هذا الموضوع. لماذا تظن دوماً أن بإمكانها القيام بهذه الأمور؟ وأن كل شيء سينجح إذا هي اجتهدت جيداً في تنفيذه؟

وضع جويل ذراعه حولها، ورفع يده الأخرى يلامس خدها مطمئناً: «سيكون كل شيء على ما يرام، لقد تدبرت أمر المستقبل هنا، سواء بالحيتان أو بدونها. لكن الحيتان ستعود، يا تيفاني، وقد يستغرق ذلك عدة أيام، أسبوعاً أو أسبوعين أو حتى أكثر. لكن هاڤن بي ستبقى

وستزدهر. أعدك بذلك».

سألته بحيرة: «ماذا تعني بقولك أنك تدبرت أمر المستقبل هنا؟».

لم تستطع أن تفهم ما قاله، ومع ذلك حدثتها عيناه أنه يعدها بألاّ يحدث لقريتها أي سوء، وابتسم باعثاً الدفء في كيانها:

ـ عندما كنت تحاولين رفع نسبة مشاهدي المحطة، عقدت اتفاقية مع المجلس التشريعي للمقاطعة لتطوير السياحة هنا في هاڤن بي، والخطة توشك على الحصول على الموافقة. ولهذا قلت لك أن تحفظي في ذهنك مظهر القرية الآن، يا تيفاني. فبعد أشهر قليلة لن تعود القرية كما كانت... على الإطلاق.

ـ هل فعلت ذلك من أجلي يا جويل؟

واختنقت الكلمات في صدرها حتى كادت تعجز عن الكلام. كان تغيّر مشاعره حيال هاڤن بي أمراً لا يصدّق. وقال برقة بالغة: «قليلون هم أمثالك الذين يساعدون الآخرين من دون مقابل. أنا أريدك في حياتي يا تيفاني. وكنت سأفعل أي شيء لكي أحظى بحبك. لم أهتم في الحقيقة إذا فشلت في المحطة. فحقيقة أنك تحاولين أن تنجحي لأجلي، يعني لي أكثر من أي نجاح. وكنت أعلم كيف سأدعمك إذا أنت فشلت. لكن هاڤن بي كانت حاجزاً. استطعت أن أرى أن مبادرتك لأجل هذه القرية العتيقة ستصبح مشكلة بيننا إذا فشلت، وستسبب الضرر لمن تحبين، مثل الآن وأختك، وكذلك للآخرين الذين يودّون بناء مستقبلهم في هذا المكان».

ـ إذن قررت أن تدعمني رغم كل شيء؟

أجفل لكلماتها وردّ: «كنتِ على صواب عندما قلت إنني متحامل على القرية من دون وجه حق».

ـ لا، لم أكن على صواب.

أنكرت ذلك بسرعة، فقد أدركت أنه هو من عانى من التحامل عليه من دون حق.

ـ لم أكن أعلم ما حدث لك هنا، إلا اليوم بعد أن ظننا أننا لن نعود،

فأخبرني غاريت أخيراً بكل شيء.

وتفرست في عينيه بقلق: «ألم يعد يهمك ذلك؟».

ـ لا إذا كنت أنت لي.

أجاب بذلك ببساطة، ولم يكن في عينيه أي ألم على الإطلاق، بل حب عميق لها وللمستقبل الذي قد يجمعهما معاً.

ـ سأكون لك على الدوام.

تعهدت له بذلك وقد غمرها الارتياح بعد أن أدركت أن ضياع ماري بيث قد طواه النسيان أخيراً.

وضعت ذراعيها حول عنقه، وقد شعّت عيناها حباً له. واسترخت ملامحه بابتسامة أخرى: «ستتزوجينني إذن؟».

ضحكت وهي تكاد تنفجر من السعادة وقالت مداعبة: «أنت ألحيت عليّ، وأنت مضطر لذلك، لأن نيريدا ستنشر الخبر».

قهقه ضاحكاً، فحدقت إليه متسائلة بسرور. كانت المرة الأولى التي تسمعه فيها يضحك من أعماقه... المرة الأولى التي ترى عينيه تشعان سروراً. وتعهدت لنفسها بصمت بأن تجعله يضحك أكثر في المستقبل... وأن تملأ حياته بالمرح.

كما أنها ستنجب له طفلاً... بل أطفالاً، ستكون لها أسرة كبيرة. وسيكونان سعيدين جداً. وستتخلص من الحراس في جزيرة «ليجر»، وبهذا لن يعود بيتهما حصناً مغلقاً على بقية العالم، بل أرضاً يلعب فيها أولادهم... ويملأونها بالمرح والضحك.

رفعت بصرها فرأت عيني جويل شاخصتين إليها، وقد قطب حاجبيه بحيرة، ثم سألها بشيء من الاهتمام: «هل كل شيء على ما يرام؟».

فابتسمت:

ـ وكيف لا يكون الأمر كذلك وأنت لا تنفك عن حمايتي أنّى التفتّ، حريصاً على أن يكون كل شيء على ما يرام؟

فقال وقد نضحت عيناه بالمشاعر العنيفة:

ـ أنا بحاجة لأن تطلعيني على الطريق إلى ذلك، وأنا سأفعل هذا دوماً يا تيفاني. وبدونك...

فقالت بسرعة تطمئنه:

ـ وأنا بحاجة إليك، يا جويل. نحن خلقنا لبعضنا البعض. لقد شعرت بذلك عندما رأيتك للمرة الأولى وتعاظم شعوري الآن. لن يفرّق شيء بيننا... أبداً.

ـ تيفاني

وصدرت عنه آهة ممزقة وهي تعده بحياة كان يظنها مستحيلة عليه، كاد لا يصدّق أن هذا يحدث حقاً، وأن بإمكانها أن تحبه كل هذا الحب. لكنه رأى ذلك في عينيها، في صوتها، وفي كل كلمة قالتها.

وتوسلت إليه برقة: «عانقني يا جويل، عانقني بكل الحب الذي في قلبك. بكل حبنا في المستقبل».

لم يسمع المطر يضرب النوافذ، لم يسمع عويل الرياح الموحش في الخارج، لم ير بيتون وهو يدير المرآة. لم يعد هناك شخص آخر في العالم سواها... واحتضنها إلى قلبه بحب... بحب ملأ روحه وتدفق في روحها جدولاً لا ينضب.

فكر في أن رحلة الألف ميل، تبدأ بخطوة واحدة. لكنه سبق وسار شوطاً طويلاً. أدرك كم تغيّر، وكم أعطته تيفاني. أقسم أن يبقى بجانبها أبداً، أن يذهب أنّى تذهب، وسيشكر إلى الأبد وجوده معها.

أصبحت الحياة الآن جديرة بالعيش، أصبح لها معنى، ودوماً سيكون لها معنى... مع تيفاني.

* * *